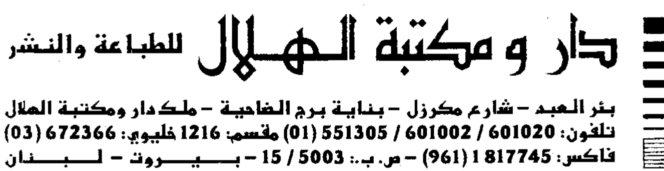
مصطفى لطفي المنفلوطي



الجزء الأول

دار ومكتبة الهلال

الطبعة الأولى
2000 م



دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر

بئر العبد - شارع مكرزل - بناية برج الضاحية - ملك دار ومكتبة الهلال
تلفون: 601020 / 601002 / 551305 (01) مقسم: 1216 خليوي: 672366 (03)
فاكس: 817745 1 (961) - ص.ب.: 5003 / 15 - بيروت - لبنان

E-mail : hillal@libancom.com.lb

النظرات
١



كلمة الناشر

يحتوي هذا الكتاب، المؤلف من ثلاثة أجزاء، على قصص، وخواطر، ومقالات مختلفة في مواضيع شتى، كُتبت في أوقات متفاوتة بين عامي ١٩١٠ و ١٩٢٠.

وتشمل هذه الكتابات توضيح مذهب المنفلوطي في الأدب، ودفاعه عن المثل العليا للثقافة العربية الإسلامية، ونقده الرذائل الاجتماعية في المجتمع المصري.

ولد المنفلوطي في بلدة منفلوط في صعيد مصر، وتعلم في الأزهر الشريف، واتصل بالشيخ محمد عبده، وعاون الشيخ علي يوسف في تحرير جريدته «المؤيد». وكان قارئاً ذواقاً، شديد التأثر برشاقة التعبير الجيد غير المتكلف في شعر القدماء ونثرهم، وساعده عمله في الصحافة على اصطناع أسلوب أدبي اتسم بالوضوح والبعد عن التعقيد.

إن دار ومكتبة الهلال توصي الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات بتشجيع الجيل الجديد من الطلاب والطالبات على مطالعة هذا الكتاب، الذي لا بد سيكون ذا فائدة كبيرة في تقويم ألسنتهم وتحسين كتاباتهم.

الناشر

مقدّمة

يسألني كثير من الناس كما يسألون غيري من الكتّاب: كيف أكتب رسائلي، كأنما يريدون أن يعرفوا الطرق التي أسلكها إليها فيسلكوها معي، وخير لهم ألا يفعلوا، فإني لا أحب لهم ولا لأحد من الشادين في الأدب أن يكونوا مقيّدين في الكتابة بطريقتي أو طريقة أحد من الكتاب غيري، وليعلموا ـ إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الأمر ـ إني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون لي الفضل فيه، إلا لأني استطعت أن أنفلت من قيود التمثل والاحتذاء، وما نفعني في ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها عليّ وعجزها عن أن تمسك إلا قليلاً من المقروءات التي كانت تمر بي، فقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ، ثم لا ألبث أن أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي الإجمال آثاره وروعة حسنه ورنة الطرب به، وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي أو أستعين به على تهذيب بياني، أو تقويم لساني، أو تكثير مادة علمي باللغة والأدب، بل كل ما كان من أمري أنني كنت امرأ أحب الجمال وأفتتن به كلما رأيته في صورة الإنسان، أو مطلع البدر أو مغرب الشمس، أو هجعة الليل، أو يقظة الفجر، أو قمم الجبال، أو سفوح التلال، أو شواطىء الأنهار، أو أمواج البحار، أو نغمة الغناء، أو رنة الحداء، أو مجتمع الأطيار، أو منتثر الأزهار، أو رقة الحس، أو عذوبة النفس، أو بيت الشعر، أو قطعة النثر، فكنت أمر بروض البيان مراً، فإذا لاحت لي زهرة جميلة بين أزهاره، تتألق في غصن زاهر بين أغصانه، وقفت أمامها وقفة المعجب بها، الحاني عليها، المستهتر بحسن تكوينها وإشراق منظرها، من حيث لا أريد اقتطافها أو إزعاجها من مكانها، ثم اتركها حيث هي، وقد علقت بنفسي صورتها إلى أخرى غيرها، وهكذا حتى أخرج من ذلك الروض بنفس تطير سروراً به، وتسيل وجداً عليه، وما هو إلا إن درت ببعض تلك الرياض بعض دورات، ووقفت ببعض أزهارها

بضع وقفات، حتى شعرت أني قد بدلت من نفسي نفساً غيرها، وأن بين جنبي حالاً غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل، فأصبحت أرى الأشياء بعين غير التي كنت أراها بها، وأرىٰ فيها من المعاني الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسناً، والنفس بهجة، فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم، وأرى الجمال فرأيت لبه وجوهره، وأرىٰ الخير فرأيت حسنه، وأرىٰ الشر فرأيت قبحه، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها، وأرىٰ البأساء فرأيت مدامعها، وأرى العين فرأيت السحر الكامن في محاجرها، وأرى الثغور فرأيت الخمر المترقرقة بين ثناياها، وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها الفضية الراقصة في جو السماء، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهم أن يسيل على جوانبه سيلاً، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب في تجاليد[1] الظلام دبيب المشيب في تجاليد الشباب، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية على الكون من فروج قميص الليل، وأرىٰ الليل فرأيته وهو يهوي بأجنحته السوداء إلى الأرض هوى الكرى إلى الأجفان، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها، وحفيف الأوراق ففهمت نغماتها، وتغريد الأطيار فعرفت لغاتها؛ فأحببت الأدب حباً جماً ملأ ما بين جانحتي؛ فلم تكن ساعة من الساعات أحب إليّ ولا آثر عندي من ساعة أخلو فيها بنفسي وأمسك على بابي ثم أسلم نفسي إلى كتابي فيخيل إليّ أني قد انتقلت من هذا العالم الذي أنا فيه إلى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر، فأشهد بعيني تلك العصور الجميلة، عصور العربية الأولى، وأرى العرب في جاهليتها بين خيامها وأخبيتها، وأطنابها، وأعوادها، وإبلها وشائها، وشيحها وقيصومها، وأرى مساجلاتها ومنافراتها، وحبها وغرامها، وعفتها ووفاءها، وصبرها وبلاءها، وحداءها وغناءها، وأسواق شعرائها، ومواقف خطبائها، وفقرها وإقلالها، وشحوب وجوهها، وسمرة ألوانها، وضوى أجسامها وترددها في بيدائها بين حمارة القيظ[2] وصبارة البرد[3]، وتنقلها من صحراء إلى ريف، ومن مشتى إلى مصيف، ومن نجد إلى وهد، ومن شرف إلى غور، وانتجاعها مواقع الغيث، ومنابت العشب، وقناعتها من الطعام بأحفان التمر وقعاب اللبن وأصواع الشعير، فإذا جد الجد أكلت القد[4] واشتوت الجلد، وتبلغت بالضب واليربوع، وعراقيب الآبال، وأظلاف الأبقار، واكتفت من اللباس

---

(١) التجاليد: الجسم.

(٢) شدة الحر.

(٣) شدة البرد.

(٤) السير يقد من جلد.

بأكسية الكرابيس وأردية الأشعار، وقمص الأوبار، فإذا أعوزها ذلك لبست الظل، وافترشت الرمل، غير ناقمة ولا ساخطة، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه، ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الإسلامية فأرى رغد عيشها، ولين طعامها واعشوشاب جانبها، وعذوبة مواردها ومصادرها، وسرورها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس وأعلاق الروم، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان، واللؤلؤ المنثور من الولدان، وأرى مجالس غنائها، ومجامع أنسها، ومسارح لهوها، ومجالات سبقها، وملاعب جيادها، ومذاهب طرائدها، ومواقف حجها، وازدحام شعرائها على أبواب أمرائها، وجوائز أمرائها في أيدي شعرائها، وانطلاق ألسنتها بوصف ما تشاء من الأعواد والبرابط والمعازف والمزاهر والأقداح والدنان والموائد والصحف، وألوان الطعام حلوة وحامضة، وأصناف الشراب حلاله وحرامه، والطيور المحلقة في الأجواء، والسفن الذاهبة في الدأماء[1]، والرياض الخضراء والغابات الشجراء، والقصور وتماثيلها، والبحيرات وأسماكها، والأنهار وشواطئها، والأزهار ونفحاتها، والغيوث وقطراتها، ودبيب الحب في القلب، والغناء في السمع، والصهباء في الأعضاء، وخلجة الشك، ولمحة الفكر، وبارقة المنى.

ثم لا أشاء أن أرى بين هذا وذاك خلقاً عذباً، أو أدباً غضاً، أو حباً وفياً، أو مجوناً مستظرفاً، أو حوراً مستملحاً، إلا وجدته؛ ولا أن أسمع ما تهتف به العاتق في خدرها، وما يحدو به الحادي في أعقاب إبله، وما يتغنى به العاشق، وما يهذي به الشارب، وما يترنم به الشادي، وما يساجل به الماتح[2] إلا سمعته. ولا إن أعلم ما يهجس في نفس المحب إذا اشتمل عليه ليله، والحائر إذا ضل به سبيله، والثاكل إذا فجعت بواحدها، والموتور إذا حيل بينه وبين واتره، والكريم إذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء، والغريب في دار غربته، والسجين بين جدران سجنه، والخائف إذا وقف بين الرضا والغضب، والمقدم للقتل إذا وقف بين الرجاء واليأس، والبائس إذا أعوزه القوت، واليائس إذا أعوزه الموت، والعزيز ذا ذل، والمشرف إذا هوى، والشريف إذا عبث بشرفه

(١) الدأماء: البحر.

(٢) الماتح: المستقى على البئر.

عابث؛ والغيور إذا لمس عرضه لامس، إلا علمته، ولا أن أعرف خلق الدهر في تنقله بالناس ما بين رفع وخفض، وجدة وفقر، ونعيم وبؤس، وإقبال وإدبار، ولا أثر يده السوداء في خراب القصور، وخلاء الدور، وإقفار المغاني، وتصويح الرياض، إلا عرفته؛ فكنت أجد في نفسي من اللذة والغبطة بذلك ما لا يقوم به عندي كل ما ينعم به الناعمون من رغد في العيش ورخاء حتى ظننت أن الله سبحانه وتعالى قد صنع لي في هذا الأمر، وأنه لما علم أنه يكتب لي في لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجدودين من مال أو جاه أعيش في ظله، وأنعم بثمرته زخرف لي هذا الجمال الخيالي البريء من الريبة والإثم، وزوّره[1] لي تزويراً بديعاً ووضع لي فيه من الملاذ والمناعم ما لم يضع لغيري. رحمة بي وإرعاء على أن أهلك، أو يهلك لبي بين اليأس القاتل، والرجاء الكاذب، وهكذا لا أزال محلقاً في هذا الجو البديع من الخيال أضحك مرة وأكتئب أخرى، وأتغنى حيناً وأبكي أحياناً حتى يرميني الباب ببعض الطارقين أو يستعيد إليّ نفسي مستعيد.

ولم يكن حولي لذلك العهد ممن يستعين بمثلهم مثلي على الأدب أحد؛ لأنني كنت أعيش في مفتتح عهدي به ـ ولم أكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة ـ بين أشياخ أزهريين من الطراز القديم لا يرون رأيي فيه، ولا يتعلقون منه بما أتعلق فكانوا يرون أن التوفر عليه أو الإلمام به عمل من أعمال البطالة والعبث، وفتنة من فتن الشيطان، فكان الذين يتولون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه، كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ونزعات الصبوة ضناً بي ـ يزعمون ـ أن انفتي ساعة من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها! فكنت لا أستطيع أن ألم بكتابي إلا في الساعة التي آمن فيها على نفسي أن يلموا بأمري ـ وقليلاً ما كنت أجدها ـ وكثيراً ما كانوا يهجمون مني على ما لا يحبون فإذا عثروا في خزانتي أو تحت وسادتي أو بين لفائف ثوبي على ديوان شعر أو كتاب أدب خيل إليهم أنهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة السارق، أو الزجاجة في جيب الغلام، أو العشيق في خدر الفتاة، فأجد من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثله مثلي؛ وهم لا يعلمون ـ أحسن الله إليهم ـ إنهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذي ينقمون منه ما ينقمون، ويد من

---

(١) زوره: حسنه وقرمه.

أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري؛ فلولا الأدب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهمْ آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الأحكام التي دوّنوها لهم وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ويعيشون في ظلها عيش السعداء المترفين، ولولاه لما استطاع علماؤهم اللغويون أن يورثوهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم، ويدلون بمكانهم منها على الناس جميعاً، كما يعلمون أن الأدب هو خير ما يستعين به متعلم على علم، وأن الذوق الأدبي الذي يستفيده المتأدب من دراسة الأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها، والدليل الذي يتسمته ويترسم مواقع أقدامه في فهم أصول الدين ليكون مجتهداً إن استطاع أو واقفاً على منازع المجتهدين، واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بأدق أغراضه وأعمقها وأقصاها مكاناً من قلبه ليكون إنساناً ناطقاً، ومعلماً نافعاً، ولو أن هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه ـ وهم اليوم والحمد لله قليل، بل هم في طريق الفناء والانقراض ـ قد تعلقوا منه بما كان يتعلق أسلافهم وأئمتهم من قبل لنالوا به في دينهم خيراً، ولاستدفعوا به عن أنفسهم في أمره شراً عظيماً، فما زال الدين واضح النهج قائم الحجة، وما زالت آيات الكتاب ومتون الأحاديث سائغة هنيئة، لا يلحقها الريب ولا يحيط بها الشك ولا تطير بجنباتها الأوهام والظنون، حتى جهل علماء الدين والأدب، ففسدت أذواقهم، وضلت أفهامهم، فكثر بينهم التأويل والتخريج، ووهت تلك العقدة الوثيقة بين الألفاظ والمعاني، واسترخت عراها من أيديهم، فأصبح كل لفظ في نظرهم محتملاً لكل معنى، حتى ما يأبى أحدهم على الآخر شيئاً، وتهافت ذلك الحاجز الحصين الذي كان قائماً بين الحقيقة والمجاز، والحقيقة والخيال، فبغى بعض الكلم على بعض، وعاث كل منها في تربة صاحبه إقبالاً وإدباراً، وجيئة وذهوباً وصعوداً ونزولاً، فاستطاع الواغلون في الدين والناصبون له أن يدخلوا عليه من الأحاديث المنحولة الغريبة في أساليبها ومناهجها عن مناهج العرب وأساليبهم ما لا يضبطه الحساب كثرة، فهلكت الأمة بين هذا وذاك هلكاً لا تزال تتجرع كأسه المريرة حتى اليوم.

فالحمد لله أولاً، وللأدب ثانياً، على نجاتي منهم فيما كانوا يرومون بي، ويحاولون مني، بل أحمد الله إليهم كذلك فقد كفيت بسوء رأيهم في الأدب ونقمتهم عليه شر من يدخل بيني وبين نفسي في المفاضلة بين شاعر وشاعر،

وكاتب وكاتب، أو الموازنة بين أسلوب وأسلوب، وديباجة وأخرى، فلم يكن لي عون على ذلك كله غير شعور نفسي وخفوق قلبي خفقة السرور أو الألم أن مر بي ما أحب أو ما أكره من حسنات القول أو سيئاته، من حيث لا أعرف سبيل ذلك ولا مأتاه، فكان شأني في ذلك شأن السامع الطروب الذي تطربه نغمة وتزعجه أخرى، فيطير بالأولى فرحاً وبالثانية جزعاً، وقد يكون ضعيف الإلمام بضروب الإيقاع وقواعد النغم، فكنت لا أقرأ إلا ما أفهم، ولا أفهم إلا ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس، فإذا هو في كبد الرمية ولبها، فإن رأيت أن المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعاظلة، والأساليب الملتوية، علمت أن القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الإفضاء بما في نفسه لأنه لا يعرف كيف يفضي به، وإما جاهل لم يستو له المعنى الذي يريده كل الاستواء ولم يدر في جوانب نفسه حتى يستقر في قراره منها، فهو يتوهمه توهماً ويجمجمه جمجمة ويهذي به هذياناً فلا سبيل له إلى الإفصاح عنه، وإما داهية محتال قد علم أن المعنى الذي يجول في نفسه ويتردد في خاطره تافه مرذول وكان لا بد أن ينفقه[1] على الناس ويزخرفه لهم ويزوره[2] في أعينهم، فهو يكسوه أسلوباً غامضاً ليكدهم ويجهدهم في سبيله حتى إذا ظفروا به بعد ذلك خيل إليهم أنهم قد ظفروا بمعنى غريب، أو خاطر بديع، ووجدوا فيه عند الوصول إليه من اللذة والمتعة ما يجد الظامىء في ضحضاح[3] الماء الكدر إذا أبعد النجعة في طلبه ووصل إليه بعد الجهد والإشقاء، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم أن ضعفاء الأفهام من الناس، وهم سواد الأمة ودهماؤها، لا يرضون عن معنى من المعاني ولا يستسنون[4] قيمته ولا يقيمون له وزناً إلا إذا جاءهم في جلدة من الألفاظ المتكرسة المتقبضة، وأنهم إذا ورد عليهم أثمن المعاني وأغلاها، وأكرمها جواهراً وأطيبها عناصراً في ثوب من الأساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم إلى أنه ما جاءهم على هذه الصورة إلا لأنه ساقط مبتذل، أو سوقي مطروق فاحتقروه وازدروه، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته. أن لا بد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضاهم، والنزول على

---

(١) ينفقه ـ بالتشديد ـ يجعله نافقاً: أي رائجاً.

(٢) زور الشيء: حسنه وزخرفه.

(٣) الضحضاح: الماء القليل في قعر البئر.

(٤) استسنى قيمته: رآها سنية رفيعة.

حكمهم، فتجمل لهم باللكنة والعي! وتملقهم بالغموض والإبهام. وإما أعجمي يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات وهو لا يعرف منها غيرهما فينطق بشيء هو أشبه الأشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الأعجمية ترجمة حرفية، فإن نعيت عليه غرابة أسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم كان مبلغ ما ينضح به عن نفسه أن المعاني العصرية والخيالات الحديثة لا يستطاع إلباسها الأكسية البدوية، والأردية العربية، كأنما هو يظن أن المعاني والخواطر خطط وأقسام، وأنصبة وسهام، هذا للشرق وهذا للغرب، وهذا للعرب وهذا للعجم! أما الحقيقة التي لا ريب فيها فهي أن الرجل لا ينتزع تلك المعاني من قرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله. وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعاني في اللغة الأعجمية التي يعرفها لاصقة بأثوابها الأصلية، فلما أراد أن يفضي بها إلى العرب، وكان غير مضطلع بلغاتهم ولا متمكن من أساليبهم عجز عن أن ينزع عنها أثوابها اللاصقة بها فنقلها إليهم كما هي إلا ما كان من تبديل حرف بحرف أو لفظ بآخر من حيث يظن أنه يهتف بشيء قام في نفسه أو يفضي بخاطر من خواطر قلبه، وإما شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته أن يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون أن يكدرها عليهم بالمطل والتسويف والمدافعة والمحاولة. والشح خلق إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجد مصطنعاً ولا يظفر منه متعصر ببلة. فيضن بعلمه كما يضن بماله، ويقبض لسانه عن النطق كما يقبض يده عن الإنفاق ويصرد[1] عطاءه تصريداً ليستديم حاجة الناس إليه كما يجيع كلبه ليتبعه، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على العجزة والجاهلين والمحتالين والكاذبين والأشحاء والباخلين.

وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب ـ سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل ـ أوصفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيها، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضاً، أو يضعه في أيديهم وضعاً، فإن ظننت أن القائل كاذب فيما يقول أو إنه يرسم صورة غير الصورة التي تتلجلج في نفسه، أو إنه لغوي يفر من ضعف أسلوبه وفساد نظمه إلى أكمة من الألفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن

(١) صرد العطاء: أعطاه قليلاً قليلاً.

وراءها، أو ناقل يتخذ الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية والوقائع التاريخية حشواً، أو مترجم ينقل عن اللغة الأعجمية التي يعرفها آراء علمائها وكأنما هو صاحبها، أو شعرت أنه قد قدر في نفسه، وهو يكتب كلمته أن يكون بليغاً فيها أو مبدعاً ليعجب الناس منها، وكان كل حظه عندي أن أعرف له قدره في العلم ومنزلته من الذكاء والفهم إن أحسن فيما يقول، ولكنني لا أعده كاتباً ولا شاعراً، لذلك كان أغزل الغزل عندي غزل العاشقين، وفضل الرثاء رثاء الثاكلين، وأنبل المدح مدح الشاكرين، وأشرف العظات عظات المخلصين، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين، وأحسن الهجاء هجاء الصادقين، وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين.

ولا أدري ما الذي كان يعجبني في مطالعاتي من شعر الهموم والأحزان، ومواقف البؤس والشقاء، وقصص المحزونين والمنكوبين خاصة، فقد كان يعجبني كثيراً ويبكيني أحر بكاء وأشجاه شقاء المهلهل في الطلب بثأر أخيه، وشقاء امرىء القيس في الطلب بثأر أبيه، وبكاء جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها، وبكاء عدي بن زيد على نفسه في سجن النعمان، وبكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك حتى دمعت عينه العوراء، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد، وهيام أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس في المواقف والمواسم تنشد طفليها الذبيحين، وبكاء الشريف على المناذرة في خرائب الحيرة. وبكاء أبي عبادة على الأكاسرة في خرائب المدائن، وبكاء الرضى على بني هاشم، وبكاء العبلى على بني أمية، وبكاء الرقاشي على بني برمك، وذل أبي فراس في أسره، والمعتمد بن عباد في سجنه، وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مرة، وعلى ولادة أخرى، وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد، والبحتري على المتوكل، وابن اللبانة على ابن عباد، والتيمي على يزيد بن مزيد، ومروان بن حفصة على معن بن زائدة، وجنون المجنون بليلاه، وجلوسه في جنبات الحي منفرداً عارياً مذهوب اللب مشترك العقل يهذي ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب، ثم هيامه بعد ذلك مع الوحش في البرية لا يأكل إلا ما ينبت فيها من بقل، ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها، وراحته إلى الطريق يصعد مع مصعديه، وينحدر مع منحدريه، حتى هلك في أرض مقشعرة مغبرة بين الصخور والأحجار، وشقاء قيس بلبناه بعد أن طلقها براً بوالده، ونزولاً على حكمه، وذهاب الحب به ذلك كل مذهب، حتى هلك بين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب، وموقف جميل بن

معمر بين يدي أبيه، وهو يعتب عليه أشد العتب وأمره في استهتاره بحب بثينة ومخاطرته بنفسه في الالمام بحبها فيقول: يا أبت! هل رأيت قبلي أحداً قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلي نفسه أو استطاع أن يتقي ما قضى به عليه، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت، ولكن لا سبيل إلى ذلك، وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي، وأنا أمتنع عن طروق هذا الحي والإلمام به ولو مت كمداً، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه، وبكاء النبي ﷺ عندما سمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه أنه كان يئد بناته في الجاهلية، وإن واحدة منهن ولدتها أمها وهو في سفر، فدفعتها إلى أخوالها ضناً بها على الموت وإشفاقاً عليها، فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له إنها ولدت مولوداً ميتاً. ثم مضت على ذلك سنون عدة حتى كبرت البنت ويفعت فزارت أمها ذات يوم فرآها عندها فأعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسألها عنها فحدثته حديثها على وجهه، ولم تكتمه شيئاً طمعاً في أن يضمها إليه ويمنحها رحمته وعطفه فأمسك عنها أياماً، ثم تغفل أمها عنها ذات يوم وخرج بها إلى الصحراء حتى أبعد فاحتفر لها حفرة وجعلها فيها فأخذت تقول: يا أبت ما تريد أن تصنع بي، وما هذا الذي تفعل؟ وهو يهيل عليها التراب ولا يلتفت اليها، وهي تئن وتقول: أتاركي أنت يا أبت وحدي في هذا المكان ومنصرف عني؟ حتى واراها وانقطع أنينها، وبكاء الأعرابية التي مات منها ولدها في دار غربة فدفنته، ثم وقفت على قبره تودعه. وتقول: والله يا بني لقد غذوتك رضيعاً؛ وفقدتك سريعاً، وكأن لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها، فأصبحت بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ورفاتاً سحيقاً وصعيداً جرزاً، اللهم إنك قد وهبته لي قرة عين فلم تمتعني به كثيراً بل سلبتنيه وشيكاً ثم أمرتني بالصبر، ووعدتني عليه الأجر، فصدقت وعدك، ووصيت قضاءك، فارحهم اللهم غربته، وآنس وحشته، واستر عورته يوم تنكشف الهنات والسوءات؛ واثكل الوالدات! ما أمض حرارة قلوبهن، وأقلق مضاجعهن؛ وأطول ليلهن، وقل أنسهن، وأشد وحشتهن، وأبعدهن من السرور، وأقربهن من الأحزان، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لهما وانقطاع سبيله بهما حتى أصبحت زوجاً لغيره وأصبح بعدها هائماً مختبلاً يرمي بنفسه المرامي ويقذف بها في فجاج الأرض ومخارمها، حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكر حتى زارها، وهو يظن أن زوجها لا يعلم من أمره إلا

أنه أحد الأضياف الغرباء، فلما علم أنه يعرف حقيقته، وأنه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له، عزم على الانصراف حياء منه وقال لها: يا عفراء، أنت حظي من الدنيا، وقد ذهبت فذهبت دنياي بذهابك فما قيمة العيش من بعدك، وقد أجمل هذا الرجل عشيرتي واحتمل لي ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحييت منه، وإني راحل من هذا المكان، وإني عالم أني راحل إلى منيتي، وما زال يبكي وتبكي حتى انصرف، فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه وأصابه غشي وخفقان، فكان كلما أغمي عليه ألقي على وجهه خماراً لعفراء كانت زوّدته إياه فيفيق، حتى بلغ حيه وأمسك عاماً كاملاً لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنة حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضاً، فمر بعض الناس فرآه مطرحاً بجانب خبائه، فسأله عما به، فوضع يده على صدره، وقال:

كأن قطاة علقت بجناحها ... على كبدي من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسه فيها، فلما بلغ عفراء خبره قامت إلى زوجها وقالت: لقد كان من خبر ابن عمي ما كان، وقد مات في وبسببي ولا بد أن أندبه وأقيم مأتماً عليه، فقال: افعلي، فما زالت تندبه ثلاثاً حتى ماتت في اليوم الرابع. وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصراني حينما علم أن أهله قد بنوا له ديراً بنواحي الرقة ليترهب فيه ويحتجب عن الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله وإخوانه ولزم صحراء الدير عله يجد السبيل إلى الوصول إليه، فامتنع عليه ذلك بعد ما ذل للرهبان وتخضع وتأتى لهم بكل سبيل فلم يجده ذلك شيئاً، فصار إلى الجنون وحرق ثيابه وأصبح عريان هائماً لا شأن له إلا أن يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله أن يبلّغ رسائله إلى عيسى، حتى رآه بعض الناس في بعض الأيام ميتاً إلى جانب الدير. وأمثال ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء؛ كأنما كنت أرى أن الدموع مظهر الرحمة في نفوس الباكين؛ فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها؛ أو كأنما كنت أرى أن الحياة مواطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والأحزان، وأن الباكين هم أصدق الناس حديثاً عنها، وتصوراً لها، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله؛ أو كأنما كنت أرى أن بين حياتي وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبهاً قريباً وسبباً متصلاً؛ فأنست بهم وطربت بنواحهم طرب المحب بنوح الحمائم وبكاء الغمائم، أو كأنما كنت في حاجة إلى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت في مدامعهم شفاء نفسي وسكون لوعتي؛ أو

كأنما كنت أرى أن جمال العالم كله في الشعر وإن الشعر هو تفجر من صدع الأفئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم، وصعد من صدورهم مع زفراتهم.

تلك أيامي التي سعدت بها برهة من الدهر ومرّ لي فيها أحسن ما مرّ لأحد والتي لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الأعوام الطوال فأكاد أشرق بدمعي لذكراها، ثم انثنيت فوجدت يدي صفراً منها وإذ أنا بين يدي هذا العالم المظلم المقشعر عالم الحقيقة والألم، فنظرت إليه نظر الغريب الحائر إلى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت مخازيه وشروره وظلمة أجوائه، واغبرار سمائه، وقتال الناس بعضهم بعضاً على الذرة والحبة والنسمة والهبوة[١]، واتساع مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه، وسلطان القوة على الحق وغلبة الجهل على العلم. واقفار القلوب من الرحمة، وجمود العيون عن البكاء، وعجز الفقراء عن فتات موائد الأغنياء، وتمضغ الأغنياء بلحوم الفقراء، ورأيت الترائي بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه ونحلها إياها من لا يتخلق بها طلباً لرضا الناس عنه برضاه عنها، ورأيت البراءة من الفضيلة حتى فرّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العاري بسوأته والموسوم بخزيته. ورأيت الرجل والمرأة وقد سرا[٢] كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه، ثم يقايضا فلبست قباءه ولبس غلالتها فأصبح امرأة لها من النساء التكسر والتبرد وأصبحت رجلاً له من الرجال التوقح والتشطر[٣] ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التي يستظل بها الضاحون[٤] من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال في أيدي الناس إلىٰ سهام مسمومة يحاول كل منهم أن يصيب بها كبد أخيه فلا يخطئها، ورأيتَ ضلال الأسماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها، واضطراب الحدود والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها ما لم يكن داخلاً، وخرج منها ما لم يكن خارجاً، فسمى الشح اقتصاداً، والكرم إسرافاً، والحلم جبناً، والسماجة جرأة، والسفاهة براعة، والفجور فتوة، والتبذل حرية، واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكها على من يريد ركوبها، لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيماً من زعماء الخديعة

---

(١) الهبوة: الغبرة.

(٢) سرا الثوب عن جسمه: ألقاه عنه.

(٣) تشطر: صار شاطراً؛ والشاطر هو من أعيى أهله خبثاً.

(٤) الضاحي: المنكشف للشمس.

والكذب يصرفه عنها إلى غيرها، وكنت أرى أن الأدب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسه به أو يكون عوناً لفاعليه عليه، فإن ساقته إليه شهوة من شهوات النفس أو نزوة من نزواتها وجد في نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشه، ويقلق مضجعه، ويطيل سهده وألمه، فإذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا دخل له في جوهر النفس، ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان، فأكثر الناس عند الناس أدباً، وأقومهم خلقاً، وأطهرهم نفساً: من لا يفي على شرط أن يعد، ومن يكذب على أن يكون كذبه سائغاً مهذباً، ومن يملأ صدره موجدة وحقداً على أن يكون بساماً ضحوك السن، ومن يسرق على أن يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضاة عنها، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه، ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات الجسمية، التي تواضع عليها المتكلفون في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً إلى صغر النفس وأسفافها، أكثر مما يرجع إلى علوّها وكمالها، فداخلني من ذلك خطر عظيم لم أستطع أن أملك نفسي معه، كأنما خيل إليّ - لقرب عهدي بما أرى - إنني أرى شيئاً عجيباً، أو منظراً غريباً، أو كأنما كنت أحسب أن عالم الخيال الذي كنت فيه إنما هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذي انتقلت إليه، فأزعجني ما رأيت من هذا الاختلاف العظيم بينهما، فأرسلت الكلمة إثر الكلمة كما يتنفس المتنفس أو يئن الحزين، فقرأ ذلك بعض الناس، فسموا ما رأوه كلاماً، ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله، وما زلت أطمع فيهم وأرجو أن أصيب ما في نفوسهم، حتى سموني كاتباً.

وكان لذلك الأدب الذي توليت به نفسي فيما مضى أثر باق عندي حتى اليوم فإني لا أحسن أن أكتب كلمة يفضي بها غيري أو أعبر عن معنىً لا يقوم بنفسي أو أبكي على من لا يحزنني فراقه. أو أندب من لا يفجعني موته أو استنكر ما استحسن. أو استحسن ما استنكر، كما لا أستطيع أن أمر بمشهد من تلك المشاهد التي تهيج في نفسي حزناً شديداً، أو طرباً كثيراً، فأملك نفسي عن محاولة الإفضاء بما تركه عندي من خير أو شر، وما أعلم أني كتبت كلمة في شأن من الشؤون إلا وكان بعض تلك المشاهد منشأها في قلبي. فقد كنت رجلاً لا أحب الكذب، ولا آخذ نفسي به ما وجدت منه بداً، فأبغضت الكاذبين بغض الأرض للدم. فكان من

همي أن أقاتلهم على الصدق قتالاً مستعراً، حتى أصل بهم إلى إحدى الحسنيين: إما أن يكونوا صادقين وإما أن يعلم الناس أنهم كاذبون، وكنت إنساناً بائساً لم يترك الدهر سهماً من سهامه المريشة لم يرمني به، ولا جرعة من كأس مصائبه ورزاياه لم يجرعني إياها، فقد ذقت الذل أحياناً، والجوع أياماً، والفقر أعواماً، ولقيت من بأساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشر، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين. ورأيت مواقع سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين، فكان من همي أن أبكي كل بائس، وأندب كل منكوب، وأطلب رحمة القوي الضعيف، والغنى للفقير، والعزيز للذليل.

وقد قدّر لي فيما مرّ بي من أيام حياتي أن رأيت بعيني من وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكي وتضرع إليه يرضخ لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوأة ابنتها، فأبى ذلك عليها وقال لها ـ وهو يحسب أنه يعقل ما يقول ـ: أيتها المرأة لا حق لابنتك عندي ولا عند ولدي. فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرهما بأكبر من حظها منه، ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك في نفسه لأهلها حقداً قديماً، فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخاً: أيها الناس إن الفتاة مريبة. وكان كاذباً فيما يقول، ولكن صدقه الناس، فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وأفظعه، ورأيت من دخلت إليه امرأة من أولئك النساء المريبات تسأله بعض المعونة على أمرها فأمر بطردها ذهاباً بنفسه أن تسوء سمعته بدخولها بيته، وكان هو الذي أفسدها على نفسها فنزل بها فسادها إلى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر، فلما جد الجد حاسبها على لقمة تتذوقها في بيته. ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله في بيته أكلاً. فكان بي منذ ذلك العهد أن أنظر إلى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها الناس إليها، وأن ألتمس لها من العذر ـ وإن زلت بها قدم ـ ما لا يلتمسه لها أحد، وإن انتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلاً إلى ذلك حتى يديل لها الله منه، وكنت من شؤون عيشي في حالة لا أستطيع معها أن أعتزل الناس الاعتزال كله، ولا أن أختار لعشرتي من أشاء من خيارهم وذوي المروءة فيهم، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لي صديق عهداً ولا صان لي صاحب سراً، ولا استدنت مرة فنفس عني دائن، ولا دنت فوفى لي مدين، ولا رد لي مستعير عارية، ولا شكر لي شاكر صنيعة، ولا فرج لي كربتي مفرج إلا إذا استقطر ماء وجهي إلى القطرة الأخيرة منه، ليأخذ أكثر مما أعطى، ويسلب فوق ما وهب، ووجدت في طريق حياتي من خالطني مخالطة الزائر

للمزور حتى أمكنته الفرصة فسرق مالي بعد ما تحرم بطعامي وشرابي. ومن كان يبسط إليّ يد الآمل الراجي فأكره أن أرده خائباً، فلما عجزت عن ذلك مرة أضمر لي في قلبه من الشر ما لا يضمر لمثله الرجل إلا لمن يغلبه على تراث أبيه وأمه، أو يخضب لحيته من دم مفرقه ومن نصب[1] لي وغرى بمحاداتي ومماظتي[2]، لأنه كان يحمل في رأسه فتكة لم يجد في طريقه من يحملها عنه ويستخذي له فيها سواي، ومن أخذ نفسه بالنيل مني والغض من شأني لأنه كان يشكو الخمول والضعة وكان لا بد له أن يكون نابهاً مذكوراً، فاتفق له أن رأى عاتقي بين يديه فظن أنه أعلى العواتق وأبعدها مذهباً في جو السماء، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه، فوالله ما تحلحلت ولا نبوت به بقياً عليه وضناً به أن يسقط سقطة لا يئل منها، ومن كان لا يكبر شأني إلا إذا اتقاني، فإذا أضاء ما بيني وبينه كنت في عينه أصغر منه في عين نفسه، ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر عليّ وإدباره عني، لا يستحي أن يكرر ذلك حتى أستحيي له منه. فعركت بجنبي[3] كل ما كرهت من ذلك، ولكنني لم أرض لنفسي أن أنزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل إليها الغر الكريم، فلم أثأر لنفسي، ولكن أصبح رأيي في الناس غير رأيهم في أنفسهم، ورأى بعضهم في بعض، وخفت أن يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين[4] أمثالي مثل ما أصابني، فكان من همي أن أدل على شرور الأشرار الكامنة في نفوسهم وإن أكشف الستر عن دخائل قلوبهم حتى يتراءو ويتكاشفوا، فيتواقعوا ويتحاجزوا، فلا يهنأ خادع بخدعته، ولا يبكي مخدوع على نكبته، ولا يتخذ بعضهم بعضاً حمراً يركبونها إلى أغراضهم ومطامعهم، وكان منشىء في قوم بداة سذج لا يبتغون بدينهم ديناً، ولا بوطنهم وطناً، ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك وتصرفت بي في الحياة شؤون جمة، فخضعت لكثير من أحكام الدهر واقضيته، إلا أن أكون ملحداً في ديني أو زاريا على وطني، فاستطعت ـ وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية ـ أن أجلس ناحية منها. وأن أنظر إليها من مرقب عال، وكنت أعلم أن من أعجز العجز أن ينظر الرجل إلى الأمر نظرة طائرة حمقاء، فإما أخذه كله أو تركه كله،

---

(١) نصب فلان لفلان: عاداه.

(٢) المماظة: المخاصمة والمشارة.

(٣) عرك بجنبة ذنب صاحبه: احتمله.

(٤) المحدود: المحروم؛ ويراد به سيء الحظ.

فرأيت حسناتها وسيئاتها، وفضائلها ورذائلها، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك، فكان من همي أن أحمل الناس من أمرها على ما أحمل عليه نفسي، وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء وتهالكهم لها، واستهتارهم بها، وسقوطهم بين يدي رذائلها ومخازيها، وإلحادها وزندقتها، وشحها وقسوتها، وشرهها وحرصها، وتبذلها وتهتكها، حتى أصبح الرجل الذي لا بأس بعلمه وفهمه إذا حزبه الأمر[1] في مناظرة بينه وبين من يأخذ برذيلة من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضح به عن نفسه إلا أن يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل، أو ترك ما ترك كأنما هي القانون الإلهي الذي تثوب إليه العقول عند اختلاف الأنظار واضطراب الأفهام، أو القانون المنطقي الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها؛ وحتى أصبح السيد في منزله يستحي الحياء كله من خادم غرفته الأوروبية أن تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس الرداء وخلع الحذاء أكثر مما يستحي من الله ومن الناس أن يهجموا منه على أرذل الرذائل وأكبر الكبائر؛ وحتى أصبح طريق المشرق وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أقبح الصور وأسمجها في نظر كثير من الشرقيين: يفخرون بجهله إن جهلوه، ويراؤون بعلمه إن علموه، وحتى قدر الغلام الرومي ـ خادم الحان ـ منفرداً على ما لا تقدر عليه الأمة جميعها مجتمعة، فحملها على النزول إليه لتحدثه بلغته، قبل أن تحمله على الصعود إليها ليحدثها بلغتها، وهو إلى أن يترضاها ويستدنيها أحوج منها إلى أن تترضاه وتزدلف إليه.

فذلك ما تراه في رسائل النظرات منتشراً ههنا وههنا، وقد شعر به قلبي ففاض به قلبي من حيث لا أكذب الناس عن نفسي، ولا أكذب نفسي عنها.

وعندي أن الكاتب المسخر الذي لا شأن له إلا أن يكتب ما يفضي به الناس إليه صانع غير كاتب، ومترجم غير قائل، لا فرق بينه وبين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ: كلاهما ينظم ما لا يملك ويتصرف فيما لا شأن له فيه، على أن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون في تاريخه من بعده صورة نفسه ومضطرب آماله ومسرح أحلامه؛ فإن كان من شأنه في حياته أن يكون مرآة تتقلب فيها

---

(١) حزبه الأمر: اشتد عليه.

مختلفات الصور، أو وفيعة[1] تتمسح بها أعوام الأقلام كان خسرانه عظيماً لا يقوم به كل ما يربح الرابحون من مال أو يؤثلون من جاه، والتاريخ أضن من أن يحفظ بين دفتيه من مجد الأدباء إلا مجد أولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم، وحياة الكاتب بحياة كتابته في نفوس قرائها، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل أنه يكذبهم عن نفسه وعن نفوسهم وإنه رواغ متخلج[2] يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غداً، ويرى في ساعة ما لا يرى في أخرى، وأنه يستبكي ولا يبكي، ويسترحم ولا يرحم، ويحزن النفوس وهو ساكن، ويثير الثائر وهو سالم، فيستريبون به، ويحارون في مصادره وموارده، ثم يحملون أمره شر حاليه ثم ينقطع ما بينهم وبينه، والبيان ليس سلعة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوق إلى سوق ومن حانوت إلى آخر، ولكنه حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل، صدور النور عن الشمس، والصدى عن الصوت، والأريج عن الزهر، وشعاع لامع يشرق في نفس الأَديب إشراق المصباح في زجاجته، وينبوع ثرار يتفجر في صدره ثم يفيض على أسلات قلمه، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءاتِ والقواعد والحدود، ولو أن أمراً من ذلك كائن لكان أبرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة في العلم، أو أعلمهم بقواعد اللغة، أو أجمعهم لمتونها، أو أحفظهم لفصيح القول ورائعه؛ أما العلم فأكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الأسفار التي نقرؤها في الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع في ذلك اثنان؛ وها قد مرت علينا وعلى ما تركه بين أيدينا القرون والحقب وأكثرنا عاجز عن فهم أكثر ما كانوا يكتبون؛ وأما المحفوظات فما نعلم أحد أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء، ولا أحفظ للحديث من الفقهاء، ولا أقل منهم إلماماً بالأدب ولا أبعد عنه مكاناً؛ وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتأخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق في تحبير الرسائل أو قرض الشعر أو القوة القلمية في التصنيف في غير ما أخذوا أنفسهم به؛ وكان الخليل بن أحمد إذا سئل عن نظم الشعر

---

(١) الوفيعة: حرفة يمسح بها القلم.

(٢) المتخلج: المضطرب في مشيته.

قال: يأباني جيده وآبي رديئه؛ وكان الأصمعي يحفظ ثلث اللغة، وأبو يزيد الأنصاري يحفظ نصفها وأبو مالك الأعرابي يحفظها كلها، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبي عبيدة وابن دريد والأزهري والصاغاني وابن فارس وابن الأثير صاحب النهاية، والجوهري والفيروزابادي وأمثالهم من علماء اللغة والنحو، وما سمعنا لواحد منهم في إحدى الصناعتين شيئاً مذكوراً، وقال أبو العباس المبرد في بعض أحاديثه لا أحتاج إلى وصف نفسي: لعلم الناس بي أنه ليس أحد من الخافقين تختلج في نفسه مشكلة إلا لقيني بها وأعدني لها، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس، لا يخفي عليّ مشتبه من الشعر والنحو الكلام المنثور والخطب والرسائل وربما احتجت إلى اعتذار من فتلة أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثم لا أجد سبيلاً إلى التعبير عنه بيد ولا لسان، ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها وأعرض بعض أموري فأتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم أقدر على ما ارتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما في نفسي فينصرف لساني إلى غيره. بل لو شئت لقلت أنه ما أفسد علي المتنبي وأبي تمام كثيراً من شعرهما، ولا المعري كثيراً من منظمه ومنثوره، ولا على الحريري مقاماته، ولا على ابن دريد مقصورته، إلا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون فقد كانوا هم وأمثالهم من حبائس اللغة وانضائها في كثير من مواقفهم يؤلفون ويدونون، من حيث يظنون أنهم ينظمون أو يكتبون، ولا تزال نفسي تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت أن الأدب العربي كان يستطيع أن يكون خيراً مما كان لو أن الله تعالى كتب للزوميات المعري النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام وإنك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه ـ الذين يأخذون بزمام المجتمع العربي ويقيمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية في شؤونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة ـ من يعد من حفاظ اللغة العربية وثاقتها، أو من يسلم له مثال من مأخوذ نحوي أو مغمز لغوي، وهم على ذلك أدخل في باب البيان وألصق به وأمس رحماً من أولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بمترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها وغريبها ويحملون في صدورهم ما دق وما جل من مسائل نحوها وتصريفها، فإذا عرض لهم غرض من الأغراض في أي شأن من شؤون حياتهم وأرادوا

أنفسهم على الإفضاء به - ارتج عليهم فأغلقوا وتقعروا وتشدقوا فكأنهم لم ينطقوا، والفرق بين الأدباء واللغويين أن الأولين كاتبون، والآخرون مصححون؛ فمثلهما كمثل النساج وعامله: هذا ينسج الثوب، وهذا يلتقط زوائده ويمسح زئبره[1]، أو كمثل الشاعر والعروضي: هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه، وليس البيان ذهاب كلمة ومجيء أخرى، ولا دخول حرف وخروج آخر، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والرونق واستقامة الغرض وتطبيق المفصل، والأخذ بمجامع الألباب، امتلاك أزمة الهواء؛ فإذا صح ذلك لامرىء فهو الكاتب القدير أو الشاعر الجليل؛ فإن زلت به يده أصيل، أو كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة أو بعض وجوه الاستعمال فيها، كان ذلك عيباً لاحقاً بعلمه أو بحافظته، لا ببيانه وفصاحته، ومتى صدر القائل في قوله عن سجية وطبع، أصبح شأنه شبيهاً بشأن العرب الأولين، وكان من شأنهم أن يسبقهم في كلامهم الخطأ اللفظي في بعض الأحيان، وكان السبب في ذلك كما يقول أبو علي الفارسي: إنهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به؛ فربما استهواهم الشيء، فزاغوا به عن القصد من حيث لا يشعرون، وكما أن الجسم لا يغير من صورته، ولا يبدل من سحنته، أن تطير منه ذرة وتحل أخرى محلها لتمثلها، كذلك لا يغير من صورة الكلام ولا يذهب بنسقه خروج أصيل، أو دخول دخيل، وقد قيل لأحد الكتاب الإنكليز: نراك كثير الإعجاب بالكاتب «كبلنغ» وهو رجل لحانة لا يحفل بقواعد اللغة، فأجاب: إن سطراً واحداً مما يكتبه «كبلنغ» أثمن عندي من قوانين اللغة جميعها، وليس من الرأي أن أحرم نفسي التمتع بأدبه وإكراماً لسواد عيون الغراماطيق[2] الإنكليزي، فضل الأدباء على اللغة في سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها أفضل من فضل اللغويين عليها في ذلك، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها ويعبدون[3] طرقها ويستدنون نافرها، ويجمعون شاردها، وينظمون لآلئها نظم الثاقب لآلئه في السلك فيأخذها الناس عنهم من أخصر الطرق وأقربها، وأشهاها إلى النفس، وأعلقها بالقلب؛ وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة أو يكتسب ملكة الأعراب من

---

(١) الزئبر: ما يظهر من درز الثوب.

(٢) الغراماطيق: النحو.

(٣) يعبدون: يذللون ويمهدون.

كتب النحو والتصريف؛ وما كانت اللغة عدوة للأدب ولا كان عدواً لها، بل هي أساسه وقوامه الذي يقوم به، ولكن المشتغلين بها والمتوفرين على دراستها، والمنقطعين لاستظهارها، والنظر في دقائقها، والتعمق في أطوائها لا يزال يتغلب عليهم الولع بها والفناء فيها، حتى تصبح في نظرهم مقصداً من المقاصد، لا وسيلة من الوسائل، وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل إليه، والتربية العلمية كالتربية الجسمية؛ فكما أن الطفل لا ينمو جسمه ولا ينشط، ولا تتبسط أعضاؤه، ولا تنتشر القوة في أعصابه، إلا إذا نشأ في لهوه ولعبه وقذفه ووثبه؛ كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه، ولا تأخذ مكانها من نفسه إلا إذا ملك الحرية في التصرف والافتنان والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء، دون أن يسيطر عليه في ذلك مسيطر إلا طبعه وسجيته؛ واللغوي لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف والوساوس والبلابل، فإن مشى خيل إليه أنه يمشي على رملة ميثاء، وإن تحرك خيل إليه أن تحت قدميه حفرة جوفاء حتى يقعد به خوفه ووسواسه عن الغاية التي يريد الوصول إليها. على أن الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة إلا إذا نظر إلى الألفاظ بالعين التي يجب أن ينظر بها إليها فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني، وهي أن تكون خدماً لها وخولاً، وأوعية وظروفاً، فإذا كتب تركها وشأنها وأغفل أمرها حتى تأتي بها المعاني وتقتادها طائعة مرغمة، والمعاني هي جوهر الكلام ولبه، ومزاجه وقوامه، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى تفلت من يده فيفلت من يده كل شيء.

وبعد؛ فالعلم والمحفوظات والمقروءات والمادة اللغوية، والقواعد النحوية إنما هي أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله إليها؛ فالجهل لا يكتب شيئاً لأنه لا يعرف شيئاً؛ ومن لا يضطلع بأساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرت العجمة إلى لسانه، أو غلبته العامية على أمره؛ ومن قل محفوظه من المادة اللغوية، قصرت يده عن تناول ما يريد تناوله من المعاني؛ ومن جهل قانون اللغة أغمض الأغراض وأبهمها، أو شوّه الألفاظ وهجنها، ولكنها ليست هي جوهر الفصاحة ولا حقيقة البيان فأكثر القائمين عليها والمضطلعين بها، لا يكتبون ولا ينظمون، فإن فعلوا كان غاية إحسان المحسن منهم أن يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قالبه تمثالاً سوياً متناسب الأعضاء مستوى الخلق؛ إلا أنه لا

روح فيه ولا جمال له، لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه، وهو الذوق النفسي والفطرة السليمة، وأنى لهم ذلك؛ وما دخلت الفلسفة أياً كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته، وما خلط التكلف عملاً من أعمال الذوق إلا شوَّه وجهه، وذهب بحسنه وروائه.

ولقد قرأت ما شئت من منثور العرب ومنظومها، في حاضرها وماضيها قراءة المتثبت المستبصر، فرأيت أن الأحاديث ثلاثة: حديث اللسان، وحديث العقل، وحديث القلب.

فأما حديث اللسان فهو في تلك العبارات المنمقة، والجمل المزخرفة، أو تلك الكلمات الجامدة الجافة التي لا يعني صاحبها منها سوى صورتها اللفظية فإن كان لغوياً تقعر وتشدق، وتكلف وأغرب، حتى يأتيك بشيء خير ما يصفه به الوصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب، وإن كان بديعياً جنس ورصع وقابل ووسع وزاوج وافتن في الإتيان بالكلمة مهملة كلها أو معجمة كلها أو راوح بين الإهمال والإعجام، فيخيل إليك وأنت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه بيديه صنعاً، أو يصففه تصفيفاً، ثم لا يبالي بعد ذلك باستقامة المعنى في ذاته ولا بمقدار ما له من الأثر في نفس السامع، وهذا الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأدناها وأجدرها أن ينظمه الناظم في سلك الصناعات اليدوية التي لا دخل للعقل ولا للفهم في شيء منها، وأن ينظم صاحبها في سلك جماعة المحللين الذين لا شأن لهم إلا تحليل المواد وتركيبها، وجمعها وتفريقها، والمزاوجة بين مقاديرها، والموازنة بين أثقالها، من حيث لا يكون لقوة التصور ولا لذكاء القلب دخل في هذا أو ذلك.

وأما حديث العقل فهو تلك المعاني التي ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتاً، ويقتطعونها منها اقتطاعاً، ويذهبون فيها مذهب المعاياة والتحدي والعمق والإغراب، ويسمونها تارة تخييلاً وأخرى غلواً وأخرى حسن تعليل، إلى كثير من أمثال هذه الأسماء والألقاب التي تتفرق ما تتفرق، ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب والإحالة؛ وآية ما بينك وبينها: إنك إذا رأيتها شعرت بأنك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك. وعن نفس صاحبه، وعن نفوس الناس جميعاً، وإن صاحبه لا يريد منه إلا أن يطرفك أو يضحكك أو يعجبك من ذكائه وفطنته واقتداره على تصوير ما لا يتصور وإيجاد ما لا يكون، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر، ولا حقيقة الكتابة، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرك وأكدك وملأ قلبك غيظاً وقبحاً كأن يقول:

لـو لـم تـكـن نـيـة الـجـوزاء خـدمـتـه لـمـا رأيـت عـلـيـهـا عـقـد مـنـتـطـق

فإن الجوزاء لا تنتطق، ولو كان هذا الذي نراه يستدير بها نطاقاً فهو شيء متصل بها قبل أن يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأولون إلى آدم وحواء، والكواكب ليست أشخاصاً أحياء يتخذ منها الناس خدماً وخولاً لأنفسهم ولو كانت كذلك لاستحال عليها ـ وهي من سكان السماء ـ أن تهبط إلى الأرض لتخدم سكانها، فقد كذب وأحال أربع مرات في بيت واحد، ثم عجز بعد هذا كله أن يترك في نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه، وعظم شأنه، فهو في الحقيقة إنما يريد ببيته هذا أن يمتدح نفسه بالإبداع وقوة التخيل، لا أن يمتدح ممدوحه برفعة الشأن وعلو المقام.

أو يقول:

مـا بـه قـتـل أعـاديـه ولـكـن يـتـقـي أخـلاف مـا تـرجـو الـذئـاب

فإن الذي يحمل في صدره قلباً رحيماً مشفقاً على الذئاب من الجوع، مستعظماً أن يخلفها ما عوّدها إياه من طعام وشراب، لا يمكن أن يكون هو نفسه ذئباً ضارياً يريق دماء الناس ويمزق أحشاءهم، ويقطع أوصالهم، ليملأ بها بطون الوحش؛ ولا يوجد بين الأسباب التي تحمل الناس على القتال سبب يشبه هذا السبب الذي ذكره؛ على أن المحسن لا يكون محسناً إلا إذا وهب ما يهب من ماله، ومن خزائن بيته، فإما أن يقتل الناس تقتيلاً ويمثل بهم، ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الأرض وذئابها؛ فذلك شيء هو بالجنون أشبه منه بالإحسان.

أو يقول:

لا يـذوق الإغـفـاء إلا رجـاء أن يـرى طـيـف مـسـتـمـيـح رواحـا

فإن النوم قوام الإنسان وعماد حياته، ولازم من لوازمه اللاصقة به، أراد ذلك أم لم يرد، فإن كان لا بد من دخوله في باب الاختيار فإن من أبعد الأشياء عن التصور والفهم أن يكون ما يحمل الإنسان على طلب النوم رجاؤه أن يرى فيه الأحلام والرؤى، فإن فعل فعلاً يدخل في باب أغراضه وأمانيه أن ينام ليرى خيال جماعة المتسولين والمتأكلين، وهم ملء الأرض وهباء الجو، وإرصاد الأعتاب، وأعقاب الأبواب، لا تفتح الأعين إلا عليهم ولا تمتلىء الأنظار إلا بهم، فهم لم يبلغوا في الضن بأنفسهم والعزف بها مبلغ من لا يراه

الرائي ولا يعثر به إلا إذا ألقى في طريقه حبائل الأحلام ليصطاد بها.

أو يقول:

لم يتخذ ولداً إلا مبالغة   في صدق توحيد من لم يتخذ ولداً

فإن الأولاد لا يتخذون اتخاذاً، وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعاماً، وأكثر ما تقذف به الأرحام من النسمات إنما هي ثمرات الحب يأتي بها عفواً، لا نبتة من نبات الأرض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها، والله تعالى غني بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها في بعض الأرحام، فإن كان لا بد في إثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفه للحوادث في الصفات والأفعال؛ فالأدلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة. وربما كان أهونها وأضعفها أنه لا يتخذ ولداً، وإنهم يتخذون. على أن المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الأرض وظهرها[1]، فالمسألة مفروغ منها قبل أن يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده؛ فلا فضل له في الإتيان بشيء جديد.

أو يقول:

وما ريح الرياض لها ولكن   كساها دفنهم في الترب طيباً

فإن الأزهار التي تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن أن تكون طيبة الريح، على أن الأزهار مريحة قبل أن يدفن هؤلاء الموتى في قبورهم، فلم يزد في كلمته هذه على أن أتى بخيال ضعيف مبتذل هو أشبه الأشياء بخيال العامة الذين يرون أن بعض الأزهار ما خلق إلا إكراماً لبعض النبيين.

أو يقول:

تتلف في اليوم بالهبات وفي الـ   ـساعة ما تجتنيه في سنتك

فقد أراد أن يصف ممدوحه بالكرم وصفاً فوق ما يصف الناس ويأتي في ذلك بما لم يأت به غيره؛ فأنزله منزلة مجانين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين دخلهم ونفقاتهم، ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة إلى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه، والقضاة يرضون في مثل هذه الأحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها في ساعة واحدة أو يوم واحد.

أيو يقول:

ولـمـا ضـاق بـطـن الأرض عـن أن يـضـم عـلاك مـن بـعـد الـمـمـات
أصـاروا الـجـو قـبـرك واسـتـعـاضـوا عـن الأكـفـان ثـوب الـسـافـيـات

فإن شيئاً من ذلك لم يكن، فالقبر لا يضيق بأحد، والجو لا يكون قبراً، والريح ليست كفناً، والرجل لا يزال مصلوباً غير مقبور، ولا يزال عارياً غير مدرج في كفن.

وأما حديث القلب فهو ذلك المنثور أو المنظوم الذي تسمعه فتشعر أن صاحبه قد جلس إلى جانبك ليتحدث إليك كما يتحدث الجليس إلى جليسه، أو ليصور لك ما لا تعرف من مشاهد الكون، أو سرائر القلوب، أو ليفضي إليك بغرض من أغراض نفسه، أو لينفس عنك كربة من كرب نفسك، أو ليوافي رغبتك في الإفصاح عن معنى من المعاني الدقيقة التي تعتلج في صدرك، ثم يتكاءدك الإفصاح عنها من حيث لا يكون للصناعة اللفظية، ولا للفلسفة الذهنية دخل في هذا أو ذاك، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يفني كما تفني الكأس الصافية دون ما تشمل عليه من الخمر، فإذا الخمر قائمة بغير إناء، أو كما تفني صفحة المرآة الصقيلة بين يدي الناظر فيها، فلا يرى إلا صورته ماثلة بين يديه، ولا لوح هناك ولا زجاج، وهو أرقى الأحاديث الثلاثة وأشرفها، وهل الذي يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم، وتنوعت أساليبهم من كلمة البيان.

ولقد كان من أكبر ما أعانني على أمري في كتابة تلك الكلمات أشياء أربعة أنا ذاكرها، لعل المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في أدبه.

(أولها) أني ما كنت أحفل من بين تلك الأحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل، أي أنني ما كدت أتكلف لفظاً غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلبه، ولا أفتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي، بل كنت أحدث الناس بقلمي كما أحدثهم بلساني، فإذا جلست إلى منضدتي خيل إليّ أن بين يدي رجلاً من عامة الناس مقبلاً عليّ بوجهه، وأن من ألذ الأشياء وأشهاها إلى نفسي أن لا أترك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطري حتى أفضي به إليه، فلا أزال أتلمس الحيلة إلى ذلك ولا أزال أتأتى إليه بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحاح المشفق المجد، حتى أظن أني قد بلغت من ذلك ما أريد، فلا أقيد

نفسي بوضع مقدمة الموضوع في أوله ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزاماً مطرداً إبقاء على نشاطه وإجماحه، وإشفاقاً عليه أن يمل ويسأم، فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به.

(وثانيها) أني ما كنت أحمل نفسي على الكتابة حملاً، ولا أجلس إلى منضدتي مطرقاً مفكراً: ماذا أكتب اليوم، وأي الموضوعات أعجب وأغرب وألذ وأشوق، وأيها أعلق بالنفوس، وألصق بالقلوب؟ بل كنت أرى فأفكر فأكتب فأنشر ما أكتب فأرضي الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا أتعمد سخطهم ولا أتطلب رضاهم.

(وثالثها) أني ما كنت أكتب حقيقة غير مشوبة بخيال، ولا خيال غير مرتكز على حقيقة، لأني كنت أعلم أن الحقيقة المجردة عن الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذاً، ولا تترك في قلبه أثراً؛ وأحسب أن السبب في ذلك أن أكثر ما تشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب والآراء والأخلاق، والخواطر والتصورات، إنما هو أثر من آثار الخيالات الذهبية التي تتراءى في سماء الفكر. ثم لا تزال بها الأيام تكسوها طبقة بعد طبقة من غبار القدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة في الأذهان، وكما أن الحديد لا يفل إلا الحديد، واللون لا يذهب به إلا لون غيره. كذلك الخيال لا يذهب ولا يزعجه من مكانه إلا الخيال، وللخيال الأثر الأعظم في تكوين هذا المجتمع الإنساني وتكييفه على الصورة التي يريدها، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد في قلب العاشق، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندي في ساحة الحرب، ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات، ولا ابتدعت المبتدعات، ولولا خيال الرحمة ما عطف غني على فقير، ولا حنا كبير على صغير، كما كنت أعلم أن الخيال غير المرتكز على الحقيقة إنما هو هبوة طائرة من هبوات الجو لا تهبط أرضاً ولا تصعد إلى سماء.

(ورابعها) أني كنت أكتب للناس لأعجبهم، بل لأنفعهم، ولا لأسمع منهم: أنت أحسنت، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت، وللناس كما قلت في بعض رسائلي؛ خاصة وعامة، أما خاصتهم فلا شأن لي معهم، ولا علاقة لي بهم ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم فلا أفرح برضاهم ولا أجزع لسخطهم، لأني لم أكتب لهم، ولم أتحدث معهم، ولم أشهدهم أمري، ولم

أحضرهم عملي، بل أنا أتجنب جهد المستطاع أن أستمع منهم شيئاً مما يتعلق بي من خير أو شر؛ لأني راض عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي أكتب بها، فلا أحب أن يكدرها عليّ مكدر، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلي فلا أحب أن يشككني فيها مشكك، ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما أستطيع به أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم. فأصغي إلى الأول لأستفيد علمه، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه، فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له أن يفرغ منها في ساعة معينة. ثم علم أن على يمين الطريق التي يسلكها روضة تعتنق أغصانها، وتشتجر أفنانها، وأن على يساره غاباً تزأر أسوده وتعوي ذئابه وتفح أفاعيه وصلاله، فمضى قدماً لا يلتفت يمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره، ولا يسرة مخافة أن يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية، والصلال الناشرة، فتعترض طريقه. وأما عامتهم، فهم بين ذكي قد وهبه الله من سلامة الفطرة، وصفاء القلب، وسلاسة الوجدان، ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه؛ فأنا أحمد الله في أمره، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه، فهو لا يرضى إلا عما يعجبه، ولا يسمع إلا ما يطربه، فأكل أمره إلى الله تعالى، واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً؟

مصطفى لطفي المنفلوطي



لغد

عرفت أني فكرت ليلة أمس فيما أكتب اليوم، وعرفت أني آخذ الساعة بقلمي بين أناملي، وأن بين يدي صحيفة بيضاء تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها؛ ولكني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه أو يكبو[1] دون غايته؟ وهل أستطيع أن أتمم رسالتي هذه، أو يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها؟ لأني لا أعرف من شؤون الغد شيئاً، ولأن المستقبل بيد الله.

عرفت أني لبست أثوابي في الصباح، وإني لا أزال ألبسها حتى الآن، ولكني لا أعلم هل أخلعها بيدي أو تخلعها يد الغاسل؟

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد، فربما كان ملكاً رحيماً، وربما كان شيطاناً رجيماً، بل ربما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزاءها، وبعثرت ذراتها، فأصبحت كأنما هي عدم من الإعدام التي لم يسبقها وجود.

الغد بحر خضم زاخر يعب عبابه[2] وتصطخب أمواجه، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر، أو الموت الأحمر.

لقد غمض الغد عن العقول، ودق شخصه عن الأنظار، حتى لو أن إنساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره؛ لا يدري أيضعها على عتبة القصر أم على حافة القبر.

الغد صدر مملوء بالأسرار الغزار، تحوم حوله البصائر، وتتسقطه[3] العقول، وتستدرجه الأنظار، فلا يبوح بسر من أسراره؛ إلا إذا جاءت الصخرة بالماء الزلال.

---

(١) كبا: سقط على وجهه.

(٢) يعب عبابه. يرتفع موجه.

(٣) تسقط الخبر: أخذه شيئاً فشيئاً.

كأني بالغد وهو كامن من مكمنه، رابض في مجثمه[١]. متلفع بفضل إزاره، ينظر إلى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء، يقول في نفسه: لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث، وهذا الباني أنه يبني للخراب، وهذا الوالد أنه يلد للموت: ما جمع الجامع ولا بنى الباني ولا ولد الوالد.

ذلل الإنسان كل عقبة في هذا العالم، فاتخذ نفقاً في الأرض، وصعد في سلم إلى السماء، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب[٢] من حديد، وخيوط من نحاس، وانتقل بعقله إلى العالم العلوي، فعاش في كواكبه، وعرف أغوارها وأنجادها. وسهولها وبطاحها، وعامرها وغامرها، ورطبها ويابسها. ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ومسافات الأشعة. والموازين لوزن كرة الأرض إجمالاً وتفصيلاً. وغاص في البحار فعرف أعماقها، وفحص تربتها وأزعج سكانها، ونبش دفائنها وسلبها كنوزها، وغلبها على لآلئها وجواهرها، ونفذ من بين الأحجار والآكام إلى القرون الخالية فرأى أصحابها وعرف كيف يعيشون وأين يسكنون، وماذا يأكلون ويشربون، وتسرب من منافذ الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة، فعرف النفوس وطبائعها، والعقول ومذاهبها، والمدارك ومراكزها؛ حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى، واخترق بذكائه كل حجاب، وفتح كل باب، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرؤ على فتحه، بل لا يجسر على قرعه، لأنه باب الله، والله لا يطلع على غيبه أحداً.

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لنرى صفحة[٣] واحدة من صفحات وجهك المقنع، أو لا، فاقترب منا قليلاً علنا نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا، فقد طارت قلوبنا شوقاً إليك، وذابت أكبادنا وجداً عليك.

أيها الغد؛ إن لنا آمالاً كباراً وصغاراً، وأماني حساناً وغير حسان، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها؛ أأذللتها واحتقرتها، أم كنت لها من المكرمين؟

---

(١) مجثم الطائر: موضع جثومه، أي تلبده بالأرض.

(٢) الأسباب: الحبال، وكل ما يوصل بين الشيئين.

(٣) صفحة الشيء: جانبه.

لا، لا صن سرك في صدرك، وابن لثامك على وجهك، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا، حتى لا تفجعنا في أرواحنا ونفوسنا فإنما نحن أحياء بالآمال وإن كانت باطلة، وسعداء بالأماني وإن كانت كاذبة.

وليست حياة المرء إلا أمانيا إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر



الكأس الأولى

كان لي صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه في حالي بعده وقربه، وغضبه وحلمه وسخطه ورضاه، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات، فأنا اليوم أبكيه حياً أكثر مما كنت بكيه لو كنت ميتاً، بل أنا لا أبكي إلا حياته، ولا أتمنى إلا مماته، فهل سمعت بأعجب من هذه الخلة الغريبة في طبائع النفوس!

علقت حبالي بحباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفني، ثم سلك سبيلاً غير سبيله فأنكرته وأنكرني، حتى ما أمر بباله، لأن الكأس التي علق بها لم تدع في قلبه فراغاً يسع غيرها وغير العالقين بها، وربما كان يدفعني في مخيلته دفعاً إذا تراءيت فيها لأنه إذا ذكرني ذكر معي تلك الكلمات المرة التي كنت ألقاه بها في فاتحة حياته الجديدة، وما كان له وهو يهيم في فضاء سعادته التي يتخيلها أن يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال.

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئاً، لأن حياة المدمنين حياة متشابهة متماثلة، لا فرق بين صبحها ومسائها وأمسها وغدها؛ ذهاب إلى الحانات فشراب، فخمار[1] فنوم فذهاب، كالحلقة المفرغة، لا يدري أين طرفاها، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن، حتى إن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها، وكان أحرى أن يوقظه دورانها.

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلاً من قلبي إلا بعد أن سكنت دورته، وهدأت حركته، فلم أعد أراه معربداً في الحانات، ولا مطرحاً في مدراج الطرق، ولا معتقلاً في أيدي الشرط[2]. هناك سألت عنه فقيل لي: مريض، فلم

(١) الخمار: صداع الشراب.

(٢) الشرط: أعوان الأمير، ومفرده «شرطي» بضم الشين وسكون الراء.

أعجب لشيء كنت أعد له الأيام والأعوام، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب.

دخلت عليه أعوده فلم أجد عنده طبيباً ولا عائداً، لأنه فقير؛ والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء، ويبطنون حب الصفراء والبيضاء؛ والأصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير.

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه، لأني لم أجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف بأجنحته في غرفة وقاعاته، ولم أر دخان المطبخ؛ ولم أسمع ضوضاء الخدم، ولا بكاء أطفال؛ ولا رنين الأجراس؛ فكأنني دخلت القبر أزور الميت، لا المنزل أعود الحي.

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كلته البالية عن خيال لم يبق منه إلا إهاب[١] لاصق بعظم ناحل؛ فقلت: أيها الخيال الشاخص ببصره إلى السماء قد كان لي في إهابك هذا صديق محبوب فهل لك أن تدلني عليه؟ فبعد لأي ما[٢] حرك شفتيه وقال: هل أسمع صوت فلان؟ قلت: نعم، مم تشكو؟ فزفر زفرة كادت تتساقط لها أضلاعه وأجاب: أشكو الكأس الأولى، قلت: أي كأس تريد؟ قال: أريد الكأس التي أودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي، وها أنا ذا اليوم أودعها حياتي؛ قلت: قد كنت نصحتك ووعظتك، وأنذرتك بهذا المصير الذي صرت إليه فما أجديت عليك شيئاً، قال: ما كنت تعلم حين نصحتني من غوائل هذا العيش النكد أكثر مما أعلم، ولكنني كنت شربت الكأس الأولى فخرج الأمر من يدي.

كل كأس شربتها جنتها عليّ الكأس الأولى، أما هي فلم يجنها عليّ غير ضعفي وقصور عقلي عن إدراك الإصدقاء والخلطاء.

لم تكن شهوة الشراب مركبة في الإنسان كبقية الشهوات فيعذر في الانقياد إليها كما يعذر في الانقياد إلى غيرها من الشهوات الغريزية؛ فلا سلطان لها عليه إلا بعد أن يتناول الكأس الأولى. فلمَ يتناولها؟ يتناولها لأن الخونة الكاذبين من خلانه وعشرائه خدعوه عن نفسه في أمرها ليستكملوا بانضمامه إليهم لذتهم التي

(١) الإهاب: الجلد.

(٢) يقال «فعله بعد لأي» أي إبطاء و «ما» زائدة.

لا تتم إلا بقراع الكؤوس وضوضاء الاجتماع. ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه وأي ذريعة تذرعوا بها إلى ذلك؛ لتحققت أنه أبله إلى النهاية من البلاهة، وضعيف إلى الغاية التي ليس وراءها غاية.

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء، وزينوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان.

قالوا: إن حياتك حياة هموم وأكدار، ولا دواء لهذه الأدواء إلا الشراب، وقالوا: إن الشراب يزيد في رونق الجسم، ويبعث نشاطه، وإنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان، وإنه يشجع الجبان، ويبعث في القلب الجرأة والإقدام، هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به.

صدقت أن في الشراب أربع مزايا: السعادة، والصحة، والفصاحة، والإقدام؛ فوجدت فيه أربع رزايا: الفقر، والمرض، والسقوط، والجنون.

غرهم من الصحة ذلك اللون الأحمر، الذي يتركه الشراب وراءه في الأعضاء. وهو يتغلغل في الأحشاء، وفي الفصاحة الهذر والهذيان، وهجر[1] القول وبذاءة اللسان، ومن الإقدام العربدة التي لا تسكن إلا في غرفة السجن، ومن السعادة اللحظات القليلة التي يغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هي، فتنعكس في نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة[2] والصفع تحية، فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والممرورين[3].

أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام ثغراً من ثغور ساكنيه؟ أي سرور لمن يودعه أهله كل يوم في صباحه بالحسرات، ويستقبلونه في مسائه بالزفرات؟ أي سعادة لمن يمشي دائماً في طريقه متلوياً متخلجاً[4] يتسرب في المنعطفات والأزقة، ويعوذ بألواذ[5] الجدر والأسوار فراراً من نظرات الجزار، وتهكمات العطار، وصرخات الخمار.

ولقد كنت أرى هؤلاء الأشقياء في فاتحة حياتي التعسة فكان يمر بخاطري

---

(١) الهجر: الفحش.

(٢) الطرفة: الملحة المستحسنة.

(٣) الممرور: الذي هاجت مرته، ويطلق على الجنون.

(٤) متخلجاً: متثنياً.

(٥) لوذ الجبل: جانبه، والجمع: ألواذ.

ما يمر بخاطر أمثالي من أنهم قتلى الإدمان لا قتلى الشراب، وكنت أقدر لنفسي القصد فيه أن لي قدر لي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم، ولا أنزل منزلتهم، فلما شربت أخطأ العد، وضاع الحساب، وفسد التدبير، واختلف التقدير، وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به؛ ولولا الكأس الأولى ما هلكت، ولا شكوت الذي شكوت، ولولاها ما عافني الأصدقاء، ولا زهد في الأقرباء، فكن أنت وحدك صديق السراء والضراء.

فعاهدته على ذلك، ثم تركته في حالة:

تصم السميع وتعمى البصير   ويسأل من مثلها العافية

الدفين الصغير

الآن نفضت يدي من تراب قبرك يا بني، وعدت إلى منزلي كما يعود القائد المنكسر في ساحة الحرب، لا أملك إلا دمعة لا أستطيع إرسالها، وزفرة لا أستطيع تصعيدها.

ذلك لأن الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك فرزقني بك قبل أن أسأله إياك، ثم استلبنيك قبل أن أستعفيه منك، قد أراد أن يتمم قضاءه في، وأن يجرعني الكأس حتى ثمالتها، فحرمني حتى دمعة أرسلها أو زفرة أصعدها، حتى لا أجد في هذه ولا تلك ما أتفرج به مما أنا فيه؛ فله الحمد راضياً وغاضباً، وله الثناء منعماً وسالباً، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه والصبر على بلائه.

رأيتك يا بني في فراشك عليلاً فجزعت. ثم خفت عليك الموت ففزعت وكأنما كان يخيل إليّ أن الموت والحياة شأن من شؤون وعمل من الأعمال التي تملكها أيديهم، فاستشرت الطبيب في أمرك فكتب لي الدواء، ووعدني بالشفاء، فجلست بجانبك أصب في فمك ذلك السائل الأصفر قطرة قطرة، والقدر ينتزع من جنبيك الحياة قطعة قطعة، حتى نظرت فإذا أنت بين يدي جثة باردة لا حراك بها وإذا قارورة الدواء لا تزال في يدي. فعلمت أني قد ثكلتك! وإن الأمر أمر القضاء، لا أمر الدواء.

سأنام يا بنيّ بعد قليل على فراش مثل فراشك، وسيعالج مني المقدار ما عالج منك، وأحسب أن آخر ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شؤون الحياة وأطوارها؛ وخطوبها وأحداثها: هو الندم العظيم الذي لا أزال أكابد ألمه على تلك الجرع المريرة التي كنت أجرعك إياها بيدي وأنت تجود بنفسك، فيربد وجهك، وتختلج أعضاؤك، وتدمع عيناك، وما لك يد فتستطيع أن تمدّها إليّ لتدفعني عنك، ولا لسان فتستطيع أن تشكو إليّ مرارة ما تذوق.

لقد كان خيراً لي ولك يا بني أن أكل إلى الله أمرك في شفائك ومرضك، وحياتك وموتك، وألا يكون آخر عهدك بي يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التي أجشمك أياها، فلقد أصبحت أعتقد أنني كنت عوناً للقضاء عليك وأن كأس المنية التي كان يحملها لك القدر في يده لم يكن أمر مذاقاً في فمك من قارورة الدواء التي كنت أحملها لك في يدي.

ما أسمج وجه الحياة من بعدك يا بني! وما أقبح صورة هذه الكائنات في نظري! وما أشد ظلمة البيت الذي أسكنه بعد فراقك إياه! فلقد كنت تطلع في أرجائه شمساً مشرقة تضيء لي كل شيء فيه، أما اليوم فلا ترى عيني مما حولي أكثر مما ترى عينك الآن في ظلمات قبرك.

بكى الباكون والباكيات عليك ما شاءوا، وتفجعوا ما تفجعوا، حتى إذا استنفدوا ماء شؤونهم، وضعفت قواهم عن احتمال أكثر مما احتملوا، لجأوا إلى مضاجعهم فسكنوا إليها، ولم يبق ساهراً في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين: عين أبيك الثاكل المسكين، وعين أخرى أنت تعلمها.

لقد طال عليّ الليل حتى مللته، ولكنني لا أسأل الله أن ينفرج لي سواده عن بياض النهار، لأن الفجيعة التي فجعتها بفقدك لم تبق بين جنبي بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك، فليت الليل باق حتى أرى وجه النهار، بل ليت النهار يأتي، فقد مللت هذا الظلام.

دفنتك اليوم يا بني ودفنت أخاك من قبلك، ودفنت من قبلكما أخويكما فأنا في كل يوم أستقبل زائراً جديداً، وأودع ضيفاً راحلاً.. فيالله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقي القلوب، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب.

لقد افتلذ كل منكم يا بني من كبدي فلذة فأصبحت هذه الكبد الخرفاء مزقاً مبعثرة في زوايا القبور، ولم يبق لي منها إلا دماء قليل لا أحسبه باقياً على الدهر، ولا أحسب الدهر تاركه دون أن يذهب به كما ذهب بأخواته من قبل.

لماذا ذهبتم يا بني بعدما جئتم؟ ولماذا جئتم إن كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون؟

لولا مجيئكم ما أسفت خلو يدي منكم، لأنني ما تعودت أن تمتد عيني إلى ما ليس في يدي؛ ولو أنكم بقيتم بعد ما جئتم ما تجرعت هذه الكأس المريرة في سبيلكم.

لقد كنت أرضى من الدهر في أمركم أن يتزحزح لي عن طريقي التي آسير فيها، وأن يزوي وجهه عني فلا أراه ولا يراني، ولا يحسن إليّ ولا يسيء ولا يتقدم إليّ بخير ولا شر، ولا يتراءى لي مبتسماً، ولا مقطباً، ولا ضاحكاً، ولا باكياً، لو أنه رضي ني بذلك؛ ولكنه كان أذكى قلباً، وأنفذ بصراً، من أن يفوته العلم بأنني ما كنت أبكي على النعمة لو لم تكن في يدي، وما كنت أجد مرارة فقدانها لو لم أذق حلاوة وجدانها، وكان لا بد له أن يجري في سنة الشقاء التي أخذ على نفسه أن يجريها في الناس جميعاً، فلما عجز عن أن يدخل إليّ من باب الطمع، دخل إليّ من باب الأَمل، فهو يمنحني المنحة فأغتبط بها حقبة من الدهر، حتى إذا علم أن بذرة الأَمل التي غرسها قد نمت وازدهرت وأنني قد استعذبت طعمها واستطبت مذاقها، كر عليّ فانتزعها من يدي أنعم ما أكون بها، كما تنزع الكأس الباردة من يد الظامىء الهيمان، ليعظم وقع السهم في كبدي، ويفدح سلب النعمة من يدي، ولولا ذلك ما نال مني منالاً، ولا وجد إليّ سبيلاً.

يا بني، إن قدر الله لكم أن تتلاقوا في روضة من رياض الجنة، أو على شاطىء غدير من غدرانها، أو تحت ظلال قصر من قصورها فاذكروني مثل ما أذكركم، وقفوا بين يدي ربكم صفاً واحداً كما يقف بين يديه المصلون ومدوا إليه أكفكم الصغيرة كما يمدها السائلون، وقولوا له: اللهم إنك تعلم أن هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا نحبه، وقد فرقت الأيام بيننا وبينه، فهو لا يزال يلاقي من بعدنا شقاء الحياة وبأسائها ما لا طاقة له باحتماله، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به، والحنين إليه، ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التي ننعم بها في جوارك بين سمعك وبصرك، وأنت أرحم بنا وبه من أن تعذبنا عذاباً كثيراً، فإما أن تأخذنا إليه أو تأتي به إلينا.. لا، بل لا تطلبوا منه إلا أن يأتي بي إليكم. فإن الحياة التي كرهتها لنفسي لا أرضاها لكم، فعسى أن يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من دعائي فيرفع هذا الستار بيني وبينكم فنلتقي كما كنا.



مناجاة القمر

أيها الكوكب المطل من علياء سمائه. أأنت عروس حسناء تشرف من نافذة قصرها، وهذه النجونم المبعثرة حواليك قلاند من جمان؟ أم ملك عظيم جالس فوق عرشه، وهذه النيرات حور وولدان؟ أم فص من ماس ما يتلألأ، وهذا الأفق المحيط بك خاتم من الأنوار؟ أم مرآة صافية، وهذه الهالة الدائرة بك إطار؛ أم عين ثرة ثجاجة؟ وهذه الأشعة جداول تتدفق؟ أو تنور مسجور؛ وهذه الكواكب شرر يتألق؟!

أيها القمر المنير:

إنك أنرت الأرض: وهادها ونجادها، وسهلها ووعرها، وعامرها وغامرها؛ فهل لك أن تشرق في نفسي فتنير ظلمتها، وتبدد ما أظلمها من سحب الهموم والأحزان؟

أيها القمر المنير:

إن بيني وبينك شبهاً واتصالاً؛ أنت وحيد في سمائك، وأنا وحيد في أرضي كلانا يقطع شوطه صامتاً هادئاً منكسراً حزيناً، لا يلوي على أحد ولا يلوي أحد عليه، وكلانا يبرز للآخر في ظلمة الليل فيسايره ويناجيه، يراني الرائي فيحسبني سعيداً، لأنه يغتر بابتسامة في ثغري، وطلاقة في وجهي، ولو كشف له عن نفسي ورأى ما تنطوي عليه من الهموم والأحزان لبكى لي بكاء الحزين إثر الحزين؛ ويراك الرائي فيحسبك مغتبطاً مسروراً، لأنه يغتر بجمال وجهك ولمعان جبينك، وصفاء أديمك، ولو كشف له عن عالمك لرآه عالماً خراباً، وكوناً يباباً، لا تهب فيه ريح ولا يتحرك شجر، ولا ينطق إنسان، ولا يبغم حيوان.

أَيها القمر المنير:

كان لي حبيب يملأ نفسي نوراً، وقلبي لذة وسروراً، وطالما كنت أناجيه

ويناجيني بين سمعك وبصرك، وقد فرق الدهر بيني وبينه، فله لك أَن تحدثني عنه، وتكشف لي عن مكان وجوده؟ فربما كان ينظر إليك نظري، ويناجيك مناجاتي، ويرجوك رجائي.

وهأنذا يخيل إليّ أَني أَرى صورته في مرآتك، وكأني أَراه يبكي من أجلي كما أَبكي من أَجله، فازداد شوقاً إليه، وحزناً عليه.. فابق في مكانك طويلاً تطل وقفتنا، ويدوم اجتماعنا.

أَيها القمر المنير:

مالي أَراك تنحدر قليلاً قليلاً إلى مغربك كأنك تريد أن تفارقني، ومالي أرى نورك الساطع قد أخذ في الانقباض شيئاً فشيئاً، وما هذا السيف المسلول الذي يلمع من جانب الأفق على رأسك؟

قف قليلاً، لا تغب عني، لا تفارقني، لا تتركني وحيداً، فإني لا أَعرف غيرك، ولا آنس بمخلوق سواك.

آه، لقد طلع الفجر، ففارقني مؤنسي، وارتحل عني صديقي، فمتى تنقضي وحشة النهار، ويقبل إليّ أنس الظلام!!

أين الفضيلة

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من ذهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته، وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صورة البشر، فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فأحبها حباً ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب: فأنشأ يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعواماً طوالاً حتى وجدها.

لا أَستطيع أَن أكذب هذه القصة لأني أنا ذلك الفتى بعينه، لا فرق بيني وبينه إلا أنه يسمي ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة، وأنه فتش عنها فوجدها، وفتشت عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت إليها سبيلاً.

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصاً في أثواب بائع وجدته يبيعني بدينارين ما ثمنه دينار واحد، فعلمت أنه سارق للدينار الثاني، ولو وكل إليّ أَمر القضاء ما هان عليّ أن أعاقب لصوص الدراهم، وأغفل لصوص الدنانير، ما دام كل منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنه.

أَنا لا أَنكر على التاجر ربحه، ولكني أَنكر عليه أَن يتناول منه أَكثر من الجزاء الذي يستحقه على ما بذل من جهد في جلب السلعة وما أَنفق من راحته في سبيل صونها وإحرازها، وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه: أَن الأَول بدل الجد والعمل والثاني بدل الغش والكذب.

فتشت عن الفضيلة في مجالس القضاء فرأيت أَن أَعدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يفهو في تطبيق القانون الذي بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحة هذا الكرسي الذي يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه، أما إنصاف المظلوم والضرب على يد الظالم. وإراحة[1] الحقوق على أهلها وإنزال العقوبات

---

(١) أراح الحق على أهله: أعاده إليهم.

منازلها من الذنوب: فهي عنده ذيول وأذناب لا يأبه[1] لها، ولا يحتفل بشأنها إلا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقاً، فإذا اختلف طريقاهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم، ودان البريء وبرأ المجرم، فإذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرته إليه حكم القانون عليه. كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون، وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه.

فتشت عن الفضيلة في قصور الأغنياء فرأيت الغني إما شحيحاً أو متلافاً؛ أما الأول فلو كان جاراً بيت فاطمة رضي الله عنها وسمع في جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مدّ إصبعيه إلى أذنيه ثقة منه أن قلبه المتحجر لا تنفذه أشعة الرحمة، ولا تمر بين طياته نسمات الإحسان، وأما الثاني: فماله بين الثغرين: ثغر الحسناء، وثغر الصهباء.. فعلى يد أي رجل من الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنياء؟

فتشت عنها في مجالس السياسة، فرأيت أن المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط: ألفاظ مترادفة معناها الكذب، فرأيت أن الملك في كرسي مملكته كالحوذي في كرسي عربته، لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض (تعريفتة)، وذلك ينقض معاهدته، ورأيت أن أعدى عدو للإنسان الإنسان، وإن كل أمة قد أعدت في مخازنها ومستودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها وفوق متون طياراتها ما شاء الله أن تعده لأختها من الموت وأفانين العذاب حتى إذا وقع الحتف بينهما على حد من الحدود أو جدار من الجدران، لبس الإنسان فروة السبع واتخذ له من تلك العدد الوحشية أظفاراً كأظفاره وأنياباً كأنيابه، فشحذ الأولى وكثر عن الأخرى ثم هجم على ولد أبيه وأمه هجمة لا يعود منها إلا بنفسه التي بين جنبيه، وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما؟ وعلام تقتتلان؟ وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما؟ ومتى ابتدأت الخصومة بينكما، وعهدي بكما ما أنكما ما تعارفتما إلا في الساعة التي اقتتلتما فيها؟ لعرفت أنهما مخدوعان عن تقسيهما، وأنهما ما خرجا من ديارهما ليضعا درة في تاج الملك، أو نيشاناً على صدر القائد.

فتشت عنها بين رجال الدين فرأيتهم ـ إلا من رحم الله ـ يتجرون بالعقول

---

(١) أبه للشيء: تفطن له واحتفل.

في أسواق الجهل، ورأيت كلاً منهم قد ثغر له في كل رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها إلى الأخلاق فيفسدها، والمشاعر فيقتلها، ليتوسل بذلك إلى الذخائر فيسرقها، والخزائن فيسلبها.

فتشت عنها في كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعثر بها، فليت شعري هل أجدها في الحانات والمواخير، أو في مغارات اللصوص، أو بين جدران السجون.

سيقول كثير من الناس: قد غلا الكاتب في حكمه وجاوز الحد في تقديره، فالفضيلة لا تزال تجد في صدور الكثير من الناس صدراً رحباً، ومورداً عذباً؛ وإني قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم: إني لا أنكر وجود الفضيلة، ولكني أجهل مكانها، فقد عقد رياء الناس أمام عيني سحابة سوداء أظلم لها بصري، حتى ما أجد في صفحة السماء نجماً لامعاً، ولا كوكباً طالعاً.

كل الناس يدعي الفضيلة وينتحلها، وكلهم يلبس لباسها ويرتدي رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوي الأذكياء والأغنياء، ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظناً، فمن لي بالوصول إليها هذا الظلام الحالك، والليل الأليل؟

إن كان صحيحاً ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها، فسعادتي فيها أن أعثر في طريقي في يوم من أيام حياتي بصديق يصدقني الود وأصدقه، فيقنعه مني ودي وإخلاصي دون أن يتجاوز ذلك إلى ما وراءه من مآرب وأغراض، وأن يكون شريف النفس فلا يطمع في غير مطمع، شريف القلب، فلا يحمل حقداً ولا يحفظ وتراً. ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث به الناس في محضره؛ شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم، ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر[1]. شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة، ولا يبغض غير الرذيلة.

هذي هي السعادة التي أتمناها ولكني لا أراها.

إني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها، وترن أطيارها، وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها، انسياب الأفاعي الرقطاء، في الرمال البيضاء، وأرى أنامل النسائم تعبث بمنثورها الأوراق، عبث الهوى بألباب العشاق، وأسمع ما بين صفير البلابل، وخرير الجداول نغمات شجية تبلغ من

(١) الهجر: الفحش.

نفس الإنسان، ما لا تبلغ أوتار العيدان، فلا يسرني منها منظر، ولا يطربني مسمع؛ لأني لا أرى بين هذه المشاهد التي أراها ضالتي التي أنشدها.

لقد سمج وجه الرذيلة في عيني، وثقل حديثها في مسمعي، حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخير الحياة وشرها وسرورها وحزنها.

ولولا بنيات صغار يفقدون بفقدي طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت، فأجد من الأنس به والسكون إليه ما وجده الذي يقول:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى　　　وصوت إنسان فكدت أطير

الغني والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً، فرثيت لحاله وسألته: ما باله؟ فشكا إليّ الجوع، ففثأته[١] عنه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته وذهبت إلى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة، فأدهشني أني رأيته واضعاً يده على بطنه، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألته عما به فشكا إليّ البطنة، فقلت: يا للعجب! لو أعطى ذلك الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقماً ولا ألماً.

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته، ويطفىء غلته؛ ولكنه كان محباً لنفسه، مغاليا بها، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة، حتى لا يهنأ للظالم ظلمه ولا يطيب عيشه. وهكذا يصدق المثل القائل: بطنة الغني انتقام لجوع الفقير.

ما ضنت السماء بمائها، ولا شحت الأرض بنباتها، ولكن حسد القوي الضعيف عليهما فزواهما[٢] واحتجنهما[٣] دونه، فأصبح فقيراً معدماً، شاكياً متظلماً، غرماؤه المياسير الأغنياء، لا الأرض والسماء.

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس. فأستطيع أن أتصور كما يتصورون، حجة الأقوياء في أنهم أحق بإحراز المال، وأولى بامتلاكه من الضعفاء؛ إن كانت القوة حجتهم عليه، فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم؟ وما الحياة في نظر الحي بأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع. وإن كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا

---

(١) يقال: فثأت فلاناً عن فلان، إذا سكنت غيظه عليه.

(٢) زوى عنه حقه: منعه إياه.

(٣) احتجن الشيء: إذا جذبه بالمحجن إلى نفسه؛ والمحجن الصولجان، والمراد أنه استأثر به.

لهم: إن كانت الأبوة غلة الميراث فلم ورثتم آباؤكم في أموالهم ولم ترثوهم مظالمهم؟ فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء، وكان حقاً عليهم أن يردوا إليهم ما اغتصبوا منهم، فإن كنتم لا بد ورثاءهم فأخلفوهم في رد المال إلى أربابه، لا في الاستمرار على اغتصابه.

ما أظلم الأقوياء من بني الإنسان، وما أقسى قلوبهم، ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير، ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره، وهو يرعد برداً وقراً، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشواءه حلوه وحامضه ولا ينغص عليه شهوته علمه. أن بين أقربائه وذوي رحمة من تتواثب أحشاؤه شوقاً إلى فتاة تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها. بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عد ما تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الأثاث والريش، ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه ويبغض إليه حياته وكأنه يقول له في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته: أنا سعيد لأني غني، وأنت شقي لأنك فقير.

أحسب لولا أن الأقوياء في حاجة إلى الضعفاء يستخدمونهم في مرافقهم وحاجاتهم كما يستخدمون أدوات منازلهم، ويسخرون في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين أيديهم، لامتصوا دماءهم كما اختلسوا أرزاقهم، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها.

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسناً؛ لأني لا أعتمد فصلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان، وإني أرى الناس ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان؛ ورجل يحسن إلى نفسه ولا يحسن إلى غيره وهو الشره المتكالب الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً؛ ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره وهو البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه؛ وأما الرابع: وهو الذي يحسن إلى غيره، ويحسن إلى نفسه، فلا أعلم له مكاناً، ولا أجد إليه سبيلاً، وأحسب أنه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني «ديوجين الكلبي» حينما سئل: ما يصنع بمصباحه؟ وكان يدور به في بياض النهار، فقال: «أفتش عن إنسان».

مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أنني أمشي في قفرة جرداء قد انبسطت رمالها على سطحها متجعدة تجعد الأمواج المتكسرة على سطح القاموس[1] المحيط وكانت الشمس قد طفلت[2] للإياب فلم أر في بطحائها ظلاً غير ظلي المستطيل الذي رسمته يد الشمس فأخطأت في تصويره كأنما حسبتني آدم أبا البشر[3] فأوسعتني طولاً ورسمتني ميلاً.

أنشأت أمشي لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً، وأنى يكون ذلك في صحراء قد تشابهت مسالكها. وتشاكلت مذاهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيها حتى انحدرت الشمس إلى مستقرها: وطار طائر الليل من مكمنه. ونشر الظلام أجنحته السوداء في الأفق حتى وجدتني أحير من دمعة وجد في مقلة عاشق؛ يدفعها الحب ويمنعها الحياء، ولا أعلم هل أنا سر كامن في باطن الظلماء، أو حوت مضطرب في أعماق الماء. وأحياناً كان يخيل إليَّ أني في منجم من مناجم الفحم فأمد يدي أتلمس جدرانه مخافة أن أصطدم بواحد منها؛ ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام قد بدا ينفض صبغته. وإن ذراته تتطاير ههنا وههنا؛ فإذا أنا بين يدي جبل عال كأنما هو جدار قائم يمسك السماء أن تقع على الأرض، أو ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الأحمر، ومن شعاعها الرداء الأصفر.

ولا تسل هنالك عما ألم بقلبي من الهم وعقلي من الخبال؛ حينما رأيت أن

---

(١) القاموس: وسط البحر ومعظمه.

(٢) طفلت الشمس: احمرت للغروب.

(٣) ربما لم يكن آدم أطول من بنيه قامة، ولكن التشبيه بحسب الخيال الذهني على حد قوله تعالى **﴿كأنه رؤوس الشياطين﴾**.

صعود السماء أقرب إلى الأمل، من صعود هذا الجبل، وحرت بين الأقدام والأحجام، فلم أر بد من الاستسلام لمقدور الحمام، ثم رميت بطرفي فرأيت بين الصخور المبعثة في سفح الجبل صخرة بيضاء ناعمة الملمس، فاضطجعت عليها وأنا أتمثل بقول أبي العلاء؛

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد

وما هي إلا غمضة الطرف أن أشعرت بأنها تتحرك قليلاً قليلاً، ثم استقلت ثم طارت، فكدت أحسب أنه الموت قد نزل، وأنها الروح تصعد إلى الملأ الأعلى. . لولا أن فتحت عيني فرأيت ما كنت أحسبه صخرة طائراً أشبه شيء بالنسر في خلقه والقبة في ضخامتها واستدارتها، واستمر ذاهباً بي في أفق السماء، ثم رنق لحظة في الهواء ثم هبط إلى قمة الجبل فأسرعت بالانحدار عنه وهنالك أحسست بسلسبيل بارد من الأمل يتسرب إلى قلبي فينقع غلته. ويطفىء لوعته، لأنني رأيت السفح الثاني ورأيت بهجة الحياة وزهرة العمران.

رأيت على البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء ورأيت الأكواخ الصغيرة والقصور العظيمة كأنها العصافير السوداء، والحمائم البيضاء، وكأن ما ألم بنفسي من السرور إنساني ما ألم بجسمي من النصب فانحدرت إليها فما بلغتها حتى رأيتني في مزرعة في وسطها بنية قد وقف على بابها شيخ هو أشبه الأشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الهيئة في صور سكان المريخ، فذعر مني كما يذعر الإنسان لرؤية الجان، وما كان الذي قام في نفسه مني بأكثر مما قام في نفسي منه، لولا أني ألفت الغرائب، وعجمت عود العجائب فتقدمت نحوه وكأنما ألهمت لغته، فحييته بها فحياني وهو يقول: ما كنت أحسب أن الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة، أو أن في العالم إنساناً غير هذا الإنسان؛ فما زلت أحدثه وأستدنيه حتى أنس بي ودعاني إلى منزله وخلطني بنفسه وأهله وقدم لي طعاماً شهياً ومهد لي مرقداً وثيراً[1]. وكان الليل قد أقبل للمرة الثانية من هجرتي هذه، فنمت نوماً هادئاً مطمئناً لا تروعني فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك.

استيقظت أنا والشمس من مرقدينا على صوت تلك الأسرة الطاهرة الكريمة تصلي إلى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهي مصطفة صفاً واحداً أن ييسر لها الله عسرها، ويسهل أمرها، ويصلح شأنها، ويمنحها معونته ونصره؛

(١) الوثير: الواطىء.

فأخذ منظرها هذا من نفسي مأخذاً عظيماً فلم أر بداً من الانتظام في صفها، والدعاء بدعائها والبكاء لبكائها؛ وعجبت أن يكون مثل هذا الإيمان الخالص راسخاً في نفوس أهل هذه المدينة، ولم يرسل إليها رسول، ولم ينزل عليها كتاب؛ فلما فرغنا من الصلاة التفت إلى صاحب البيت وقلت له: أراكم تتعبدون، فمن تعبدون؟ وتصلون، فمن الذي تدعون؟ قال: نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبرها؛ قلت: هل رأيتموه حتى عرفتموه قال نعم رأيناه في أثاره ومصنوعاته؛ رأيناه في السماء والماء، والفلك الدائم والنجم السائر، وفي أجنحة الحيوان وبذور النبات؛ ورأيناه في أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك؛ قلت: ولم تعبدونه؟ قال: شكراً له على نعمة الخلق والرزق، وإن أحدنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته إذا أحسن إليه بجرعة أو أنعم عليه بمضغة؛ فأحرى به أن يشكر مانح المانحين، والمحسن إلى المحسنين؛ فقلت في نفسي: لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، ثم سألته أين تذهبون بعد الموت؟ قال: إلى النعيم المقيم أو العذاب الأليم؛ قلت: لعلك تريد الجنة والنار؟ قال: لا أفهم ما تقول، وإنما أعلم أن الإله الحكيم لا يترك المحسن دون أن يجازيه خيراً على إحسانه، كما يأبى عدله أن يسوي بين المحسن والمسيء؛ قلت: متى يكون المحسن محسناً والمسيء مسيئاً؛ قال: الإحسان عمل الخير؛ والإساءة عمل الشر؛ لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالإضرار بأخيه، أو من يقصر في دفع الأذى عنه؛ فقلت في نفسي ليت الفقهاء الذي ينفقون أعمارهم في الحيض والاستحاضة والمذى والودى[1] والحدث الأكبر والحدث الأصغر. وليت الكلاميين الذي يسهرون الليالي ويقرحون المآقي في عينية الصفات وغيرتها والجوهر والعرض والحدوث والقدم، والدور والتسلسل؛ وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينازعوا الله مشيئته ويجاذبوه قدرته، ويغالبوه على أمره ونهيه ويزاحموه في لوحه وقلمه - يعرفون من سر الدين وحكمته والغرض الذي قام له ما يعرف هؤلاء البله الأغرار، الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار، ولا يميزون بين الدين والتين.

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ أن يزيرني في المدينة. فانحدر بي إليها؛ فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقة غير متلاصقة، وقد أحاطت بكل منزل منها حديقة زاهرة؛ ورأيت سكانها مكبين على أعمالهم، مجدين في شؤونهم.. صغاراً وكباراً.. رجالاً ونساء.. ما فيهم فقير يتسوّل.. ولا متبطل

(١) المذي والودي: نوعان من الماء الذي يخرج من القضيب.

يتثائب ويتململ؛ وأغرب ما استهوى نظري أنني لم أر في تلك المدينة ذلك التفاوت الذي أعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم.. ومطاعمهم ومشاربهم، وهيآتهم وأزيائهم، كأن جميع سكانها سواسية في حالة المعيشة ودرجة الثروة، فسألت الشيخ: ألا يوجد فيكم غني وفقير، وسيد ومسود؟ قال: لا يا سيدي، حسب الرجل منا بيت يؤويه، ومزرعة تقيته ودابة تحمل أثقاله، ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك، لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لأنه لا يوجد فينا غني وفقير. قلت لا بد أن يكون بينكم العاجز عن العمل والمتعطل الكسلان! قال: أما الكسلان فلا وجود له بيننا، لأنه يعلم أنا لا نرحمه ولا نغفر له ذلته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلهما عن العمل، وأما العاجز فنحدب عليه ونحسن إليه، ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلاً لأننا إنما نمنحه جزءاً من القوة التي منحنا الله إياها لنعبده بها، ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين، ورحمة البائسين.

وإنه ليحدّثني بهذا الحديث إذ لاحت لنا بنية فخمة تمتاز عن غيرها من البني بحسن نظامها، وجمال هندامها، فقلت للشيخ: هل أرى قصر الملك، قال لا، ولكنه قصر رجل شرير طماع قد خالف إرادة الله وحكمه فاحتجن[١] دون عباده أرضهم وما لهم ليعلو عليهم، ويستأثر بالنعمة من دونهم، فغضب الله عليه، وقلب نعمته نقمة، ورخاءه شدة، فإنه ما أراح[٢] رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه إلى شهواتها، وحملها فوق ما تحمل طبيعتها فها هو ذا اليوم يقاسي من آلام الأمراض وأنواع الأسقام ما بغض إليه العيش، وحبب إليه الموت: لم يحمه قصره، ولم يغني عنه ماله، فهو عبرة للمعتبرين، وموعظة السابلة[٣]؛ فكبر الرجل في ذرعي[٤] وعظم في عيني، وأكبرت فيه وفي أمته هذه الخلال الشريفة، والأخلاق العالية؛ وقلت في نفسي إن مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة وأصول التربية وفنون الآداب، لتعجز عن أن تخرج للناس رجالاً يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم في صفاتهم وفضائلهم؛ وأردت ـ على ذكر المدارس ـ أن أعرف مناهج التعليم عندهم فقلت للشيخ: هل لك أن تزيرني مدرسة من مدارسكم؟ فعجب لسؤالي وقال: ما المدرسة؟ فكان عجبي لجوابه

---

(١) احتجن المال: ضمه واحتواه.

(٢) أراح فلان الشيء: وجد ريحه.

(٣) السابلة: المختلفون على الطرقات في حوائجهم.

(٤) كبر في ذرعي: عظم وقعه عندي.

أكثر من عجبه لسؤالي وقلت: المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون وكبار يعلمون؛ قال: ما الذي يتعلمه الصغار من الكبار؟ قلت: ما يصلح شأنهم وينفعهم في معاشهم وميعادهم؛ قال: وأي حاجة بنا إلى مثل هذا المجتمع الحاشد في مثل هذا المكان المحدود؟ أنا يا سيدي ارحم بأبنائنا من أن نكل أمرهم إلى غيرنا، فنحن الذين نتولى هذا الشأن منهم. فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع؛ نعلمهم فيها كيف يرمون البذور.. وكيف يستنبتونها.. وكيف يصنعون الآلات وكيف يستعملونها.. وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويعدّون عددهم.. وإنا لا نعرف علماً غير العمل ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قوام حياتنا.. ونستعين به على عبادة ربنا. قلت الكم حاكم يتولى أموركم؟ قال لنا: حكم لا حاكم وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامته.. فاخترناه لفصل الخصومات إن عرض لنا من ذلك عارض. قلت: أليس له جند وأعوان يؤيدونه ويتولون تنفيذ أحكامه؟ قال كلنا جنده وكلنا وأعوانه على كل من يختلف عليه أو يتمرد على حكمه فقد وثقنا به وبعدله وحسبنا ذلك وكفى.

قلت: إليس له سجناً يسجن فيه المجرمين؟

قال: لا.. حسب المجرم عندنا عقوبة عقوبة أن يتفق أهل المدينة على احتقاره والزراية به.. وأن أحدنا لا يؤثر أن يتخطفه الطير أو يسقط عليه كسف[1] من السماء على أن يرى نفسه بغيضاً إلى قومه صغيراً في نفوسهم ذليلاً في أعينهم.. لا يرفعون إليه طرفاً ولا يقيمون له وزناً.

وما وصلنا من حدثنا إلى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ووصلنا إلى المنزل الذي خرجنا منه.. فاستقبلنا أهله بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق.. فلم أر فيما رأيت من البيوت في مدن العالم وقراه بيتاً أسعد حظاً ولا أنعم عيشاً ولا أروح بالاً من هذا البيت.

تلك هي «مدينة السعادة» التي يعيش أهلها سعداء لا يشكون هماً.. لأنهم قانعون. ولا يمسكون في أنفسهم حقداً.. لأنهم متساوون؛ ولا يستشعرون خوفاً لأنهم آمنون.

تلك «مدينة السعادة» التي رأيتها فأحببتها وأحببت العيش فيها.. لولا أن

---

(١) الكسف: القطعة.

الله في خلقه سنة لا تتبدل.. وشأناً لا يتحول.. فقد جاء الليل وأخذت مكاني من مرقدي في منزل الشيخ فلم أستيقظ حتى رأيتني في فراشي في منزلي؛ فلا السهل ولا الجبل.. ولا الشيخ ولا المزرعة.. ولا المدينة ولا السعادة:

ولما نزلنا منزلاً طله الندى[1] ... أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه ... مني فتمنينا فكنت الأمانيا

(١) طل أمطره الطل، وهو المطر القليل.

أيها المحزون

إن كنت تعلم أنك أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد في جميع شؤونك وأَطوارك.. وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهي؛ فجدير بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب أو استعصى عليك مطلب. وإن كانت تعلم أخلاق الأيام في أخذها وردها وعطائها ومنعها وأنها لا تنام عن منحة تمنحها، حتى تكر عليها راجعة فتستردها.. وأن هذه سنتها وتلك خلتها في جميع أبناء آدم.. سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ.. ومن يطأ بنعله هام الجوزاء.. ومن ينام على بساط الغبراء؛ فخفض من حزنك وكفكف من دمعك.. فما أنت بأول غرض أصابه سهم الزمان. وما مصابك بأول بدعة طريفة في جريدة المصائب والأَحزان.

أنت حزين لأَن نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملأ عينيك نوراً.. وقلبك سروراً؛ وما هي إلا كرة الطرف إن افتقدته.. فما وجدته. ولو أنك أجملت في أملك لما غلوت في حزنك.. ولو أنت أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفاً.. ما تظنه نجماً زاهراً. وهنالك لا يبهرك طلوعه، فلا يفجعك أفوله.

أَسعد الناس في هذه الحياةَ من إذا وافته النعمة تنكر لها.. ونظر إليها نظرة المستريب بها.. وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها.. فإِن بقيت في يده فذاك؛ وإلا فقد أعدّ لفراقها عدته من قبل.

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت؛ ولو الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر. ولولا فرحة التلاق ما كانت ترحة الفراق.



إلى الدير

مسكين ذلك الفتى الذي رأيته صباح أمس منزوياً في ركن من الأركان في أحد الأندية وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة صوداء من الحزن، وانحنى على نفسه كأنما هو يشعر أن قلبه يتنزى في صدره وأنه يحاول الفرار منه وهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه، ولو أنه أراد بنفسه خيراً لتركه وشأنه يمضي في سبيله حيث شاء، فبعداً لقلب لا يسكن عن الخفقان ولا يفيق من الهموم والأحزان.

سألته: ما بالك أيها الصديق؟ قال: لا شيء؛ قلت: إنت تكتمني ما في نفسك، ولو عرفتني ما كتمتني، قال: ما جهلتك مذ عرفتك، ولكنني أعطيت الله تعالى عهداً مذ خلقت ألا أشكو إلا من أرجو عنده البرء، وما أنا براج عنك ولا عند أحد من الناس براءاً من دائي، قلت: هبني طبيباً، والطبيب وإن كان لا يشفي إلا نادراً فإنه يسكن غالباً ويعزي دائماً. فإن أنا عجزت عن معالجتك فلن أعجز عن تعزيتك، على أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى التنفيس عنه، وإلا طار بالقدر، طيران الهم بالصدر.

فأصغى إلى كلماتي واستخذى لها وأنشأ يحدثني حديثاً تمازجه العبارات وتقطعه الزفرات، يقول: زوجني أبي منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج إلا فيه قضاء لبانتها وترفيه عيشها وإرضاء نفسها وهو يحسب أنه قد أحسن إليّ بسليلة المجد، وربيبة النعمة، ومالكة الدور، وساكنة القصور؛ أجل إنها ذات مال وفير، وخير كثير، ولكن ذهب عنه - غفر الله له! - إنني ما كنت أريد أن أكون تاجراً أكسب مالاً، بل زوجاً، وأن أجد بجانبي نفساً يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبها، ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فتريني نفسي كما هي، لا تكذبني في خير ولا شر وإني أريد أن أجد في الزوجة التي أتزوجها صديقاً في المرتبة العليا من مراتب الصداقة ومن لي به في امرأة تجهل حتى إرضاع طفلها، ولبس ثوبها! على أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها؛ فقد كانت لها خادم

لملابسها، وأخرى لشعرها وأخرى لسريرها وطابخة وغاسلة؛ ومرضع وقهرمانة[١] وخياطة خاصة بها، وطبيب لا يغب[٢] عن زيارتها، ومؤنسات لا يفارقن مجلسها.. ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة الجمال.. فكانت تنفق ما يزيد عن نصف دخلها في الحسن المجلوب والمجلوب المكذوب.. وليتها كانت تغفل أمري وتتركني وشأني فأستطيع أن أتناساها وأعد نفسي من العذاب تخيلاً وتقديراً، بل كانت تقيم عليّ من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب[٣] المحيط بها حراساً كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الإنكليز، يرقبن مواقع نظري ومواطىء قدمي، لتعلم أين مذهب قلبي ووجهة نفسي فتغار علي من الكواكب إذا رأتني أنظر إليها.. وتكاد تمزق الثوب الذي تعلم أني أحبه وأؤثره.. وتحسبها آهة الوجد أو دمعة إذا رأتني أتأوه من آلام عشرتها أو أبكي لعظم مصيبتي فيها.. وما هي بغيرة الحب، ولكنها الاثرة[٤] قبحها الله وقبح كل من تأتي به، وأكثر ما كان يغيظني منها: أنها ما كانت تفتح عليّ باب الحساب على اللفتات والخطوات إلا في الساعة التي أريد أن أخلو فيها بنفسي أو بكتابي، فما أكاد أنتفع بواحد منهما. فإن سكت أغضبها سكوتي وإن نطقت أغضبها حديثي. وإن قرأت في كتابي ظنت أن المؤلفين ما ألفوا الكتب إلا نكاية بها لأستطيع أن أتخذها معتصماً أعتصم به من محادثتها ومسامرتها.. فكان الكتاب في نظرها أعدى أعدائها وأبغض الأشياء إليها، وجملة القول إنها ما كانت تستطيع أن تتصور إلا أن الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة في جميع أطوار حياتها، وإنه ما خلقني إلا لأكون زينة مجلسها ودمية[٥] قصرها، وأداة لهوها ولعبها، فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطي نفسي حقاً من حقوقها، ولا أبكر لمزاولة أعمالي ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملة التي لا تشمل إلا على نقد الأزياء واغتياب النساء. فإن وافيت فذاك وإلا استحالت في لحظة واحدة من إنسان ناطق إلى وحش مفترس، فلا تعرف كلمة مؤلمة لا تسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها عليّ. فكنت - بين ألم رضاها وعذاب غضبها - في شقاء حبب إليَّ الموت وبغض إليَّ وجه

---

(١) القهرمان: الوكيل، أو أمين الدخل والخرج، جمعها: قهارمة.

(٢) أغب فلان القوم: إذا جاءهم حيناً بعد حين.

(٣) الجحفل: الجيش واللجب: ذو الجلبة والصياح.

(٤) الأثرة: اختيار الشيء والاستئثار به.

(٥) الدمية: الصورة المنحوتة من المرمر.

الحياة. وبعد: فقد رأيت أن العيش معها مستحيل.. فلم أر بداً من فراقها ففارقتها وما على وجه الأرض شيء أبغض إليَّ من المجد.. ولا أسمج في نظري من المال. قلت: ولكني لا أزال أراك حزيناً حتى الساعة. قال: نعم لأنني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة.. ورحت أفتش عن الزوجة المتعلمة وقلت: ليكونن لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول.. بعد ما صار إليّ الخيار. وبعد تلك التجربة وذاك الاختيار.. فهيأ لي الحظ جاراً ملاصقاً ما زلت أسمع مذ حل في جواري أن في بيته فتاة جميلة ما زال يعني بأمرها حتى خرّجها[1] وأدبها فأصبحت نابغة مدرستها.. وسيدة أترابها علماً وفضلاً وتهذيباً وأدباً. فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ثم خالطتها.. فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها.. فوقعت في نفسي أحسن موقع.

وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل

خطبت الفتاة إلى أبيها فما لبث أن أخطبني[2] فامتلأ قلبي فرحاً وسروراً.. وخيل إليّ أنني أرى في سماء الآمال نجماً لامعاً ينير ظلمة حياتي، وسجلت أن الدهر أنشأ يكفر بحسناته ما أسلف من سيئاته؛ فإني لكذلك وقد أعددت للبناء بها عدته، ولم يبق بيني وبينه إلا يوم واحد، إذا بالبريد قد هجم عليّ بهذا الكتاب، فهاكهه فاقرأه؛ فإن بقية قصتي، وسر نكبتي. ثم ألقى إليّ بكتاب معنون بإسمه، ففضضته فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد أَلقت برأسها على كتفه، ووجدت مع البطاقة كتاباً فقرأت فيه ما يأتي:

«علمت إنك خطبت فلانة إلى أبيها وإنك عما قليل ستكون زوجها، ولعمري لقد كذبك نظرك، وخدعك من قال لك إنك ستكون سعيداً بها، فإنها لن تكون لك بعد أن صارت لغيرك، ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشقها، فاعدل عن رأيك فيها، وانفض يدك منها، وإن أردت أن تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صدق خبري وإخلاصي إليك في نصيحتي فانظر إلى الصور المرسلة مع هذا الكتاب؟

«التوقيع»

---

(١) خرج الأستاذ تلميذه: هذبه وعلمه.

(٢) يقال خطب فلان إلى فلان فأخطبه: أي أجابه.

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شيء، فأحسست برعشة تتمشى في أعضائي، وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظري لهول ما سمعت، وسوء ما رأيت، إلا أنني تماسكت قليلاً، فأعدت إليه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت أن أقول: ماذا يعنيك من أَمر فتاة عاهر بعد ما انكشف لك سرها، وظهرت لك حقيقتها، ولو كنت مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها، إلى الاستغفار من حبها، وحمداً لله على ما ألهم من صواب الرأي فيها؛ أما إن سألتني عن رأيي في زواجك بعد الآن، فإني لا أرى لك إلا أن تترهب وتتعزب[1] وأن تقول ما قاله «هملت» وقد زهد في الزواج بعدما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيئة نفسها: «إلى الدير.. إلى الدير».

(١) تعزب: أي عاش عزباً لا يتزوج.

الرحمة

سأكون في هذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر، لأني أريد أن أخاطب القلب وجهاً لوجه، ولا سبيل إلى ذلك إلا سبيل الشعر.

إن البذور تلقي في الأرض فلا تنبت إلا إذا حرث الحارث تربتها، وجعل عاليها سافلها، كذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلا إذا داخلته، وتخللت أجزاءه، وبلغت سويداءه، ولا محراث للقلب غير الشعر.

أيها الرجل السعيد: كن رحيماً، أشعر قلبك الرحمة، ليكن قلبك الرحمة بعينها.

ستقول: إني غير سعيد، لأن بين جنبي قلباً يلم به من الهم ما يلم بغيره من القلوب، أجل. فليكن ذلك كذلك، ولكن أطعم الجائع واكس العاري، وعز المحزون، وفرج كربة المكروب، يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك وأحزانك، ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحلك، فالبدر لا يطلع إلا إذا شق رداء الليل، والفجر لا يدرج إلا من مهد الظلام.

لقد بليت اللذات كلها.. ورثت حبالها.. وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد.. ولم يبق ما يعزى الإنسان عنها إلا لذة واحدة: هي لذة الإحسان.

إن منظر الشاكر منظر جميل جذاب.. ونغمة ثنائه وحمده أوقع في السمع من العود في هزجه ورمله[١] وأعذب من نغمات معبد في الثقيل الأول[٢].

أحسن إلى الفقراء والبائسين، وأعدك وعداً صادقاً أنك ستمر في بعض

(١) الهزج والرمل: نوعان من الموسيقى.

(٢) معبد: أحبد كبار المغنين في العصر الأموي، والثقيل الأول: ضرب من ضروب الغناء.

لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك، إنك أكرم مخلوق، وأشرف إنسان، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيراً بما فعلت.. فيدعو صاحبه بدعائه، ويرجو برجائه.. وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بها الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة: ما يجده الصالحون إذا ذكروا في الملأ الأعلى.

ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون أو مفؤود[1] فتبتسم سروراً ببكائك.. واغتباطاً بدموعك، لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من نور.. تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء: إنك إنسان.

إن السماء تبكي بدموع الغمام.. ويخفق قلبها بلمعان لابرق.. وتصرخ بهدير الرعد، وإن الأرض تئن بحفيف الريح.. وتضج بأمواج البحر، وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلا رحمة بالإنسان.. ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها في بكائها وأنينها.

إن اليد التي تصون الدموع، أفضل من اليد التي تريق الدماء، والتي تشرح الصدور. أشرف من التي تبقر البطون، فالمحسن أفضل من القائد وأشرف من المجاهد، وكم بين من يحيى الميت. ومن يميت الحي.

إن الرحمة كلمة صغيرة.. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها. والشمس في حقيقتها.

وإذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم.. وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناءة.

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم.. ولأقفرت الجفون من المدامع.. ولاطمأنت الجنوب في المضاجع. ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام.

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه. ولم يقذف به في هذا المجتمع ليموت فيه جوعاً.. بل أرادت حكمته أن يخلقه ويخلق له فوق بساط الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤونته. ويسد حاجته.. ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض وغدر القوي بالضعيف واحتجن دونه رزقه.. فتغير نظام القسمة

---

(١) المفؤود: المصاب في فؤاده بألم أو غيره.

العادلة.. وتشوّه وجهها الجميل.. ولو كان للرحمة سبيل إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل.

الفرد هو المجتمع.. وإنما يتعدد بتعدّد الصور.. أتدري متى يكون الإنسان إنساناً؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه.. فخفق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها. فإذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها، انفرد عنها واستوحش من نفسه، وإذا كان الأنس مأخذ[1] الإنسان المجتمع.. فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع.

وجماع القول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الأشقياء في مكان واحد؛ إلا إذا أمكن أن يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم والشيطان الرجيم.

إن من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل.. فإذا مشى مشى مندفعاً مندلثاً[2] لا يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة، وإذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراق في الضحك سخرية به وببذاءة ثوبه ودمامة خلقه، وإن من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درتهم[3] ويمتص دماءهم، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شويهاته وبقراته.. لا يطعمها ولا يسقيها إلا لما يترقب من الربح في الاتجار بألبانها وأصوافها.. ولو استطاع أن يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل.. وإن من الناس لا حديث له إلا الدينار وأين مستقره وكيف الطريق إليه وما السبيل إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيطة لفراره.. يبيت ليله حزيناً كئيباً لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته أو يحلم في منامه أنه سيأتيه فلم يقيض له، وأن من الناس من يؤذي الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة أو يدفع عنها مضرة، بل لأَنه شرير يدفعه طبعه إلى ما لا يعرف وجهه أو ليضرّي[4] نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه.. حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مدب عقاربه وغرض سهامه.. وإن من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقرق فيها، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها إلا

(١) مأخذ الكلمة: أصل اشتقاقها.

(٢) اندلث: كاندفع.

(٣) الدرة: اللبن إذا كثر وسال.

(٤) يقال: أضري فلان كلبه بالصيد، وضراه: إذا أغراه به وعوده متابعته.

الصورة البشرية، أو عن قلبه رأيت حجراً صلداً من أحجار الغرانيت لا يبُض[1] بقطرة من الرحمة.. ولا تخلص إليه نسمة من العظة.

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله أن تكون واحداً من هؤلاء فإنهم سباع مفترسة وذئاب ضارية.. بل أعظك ألا تدنو من واحد منهم أو تعترض طريقه.. فربما بدا له أن يأكلك غير حافل بك.. ولا آسف عليك.

أيها الإنسان. ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها، ولم يترك لها غير صبية صغار، ودموع غزار، ارحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة.

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتر منها عرضها علها تعجز عن أن تجد مساوماً يساومها فيه فتعود به سالماً إلى كسر بيتها.

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة، ولأن الله قد وكل أمرها إليك، وما كان لك أن تكذب ثقته بك.

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك ألا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين.

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم، ولا تتخذ عقله متجراً تربح فيه ليكون من الخاسرين.

ارحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكي بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين.. ارحمه وكذب من يقول إن الإنسان طبع على ضرائب لؤم، أقلها أنه يقبل يد ضاربه ويضرب من لا يمد إليه يداً.

ارحم الطير لا تحبسها في أقفاصها ودعها تهيم في فضائها حيث تشاء، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير، إن الله وهبها فضاء لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها في محبس لا يسع مد جناحها؛ أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الأشجار، وفي الغابات، وعلى شواطىء الأنهار، وترى منظرها وهي طائرة في جو السماء، فيخيل إليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار.

أيها السعداء. أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقاء، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

---

(١) بض الدم: سال.

رسالة الغفران[1]

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداها ولا بما وقع لي فيها، ثم صحوت فرأيت نفسي في صحراء مد البصر مكتظة[2] بأنواع من الخلق لا أحصيهم عدداً، فعلمت أني بعثت، وأنه يوم القيامة، فساورني[3] من الهم ما ساورني حين ذكرت أن مقداره ألف سنة من سني القيامة، وقلت: من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأ وجوعاً، ويحترق تحت أشعة شمس ليس بينه وبينها إلا قيد ظفر، فتماسكت بضعة أشهر، ثم لم أجد بعد ذلك إلى الصبر سبيلاً، فزينت لي نفسي الكاذبة أن أذهب إلى رضوان خازن الجنان، وكنت أحمل شهادة التوبة في يدي لاسترحمه وألتمس منه الإذن بالدخول قبل انفضاض المحشر، فما زلت أرقيه بقصائد المدح المسومة[4] باسمه كما كنت أرقي بأمثالها أمثاله من عظماء العاجلة وسادتها، فما أبه[5] لي ولا فهم كلمة مما أقول؛ فانصرفت عنه إلى خازن آخر اسمه زفر فكان شأني معه شأني مع صاحبه؛ إلا أنه كان أرق منه وألين جانباً، فأشار عليّ بالذهاب إلى النبي الذي أتبعه، وأفهمني أن الأمر موكول إليه، فعدت وبين جنبي من الحسرة والألم ما الله عالم به، فبينا أنا أتخلل الصفوف، وأزاحم الوقوف، إذ وقع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم، وأنعمت النظر فيه، فإذا هو الشيخ أبو علي الفارسي النحوي، وإذا بالمحتفين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه، هذا يقول له: رويت بيتي على غير وجهه؛ وذاك يقول: أعربته على غير ما أردت وذهبت، فدفعني الفضول كما

(١) للمعري رسالة طويلة بهذا العنوان هذه خلاصتها.

(٢) مكتظة: مملوءة.

(٣) ساورته الهموم: واثبته وملكت ناصيته.

(٤) المسومة: المعلمة.

(٥) أبه: أحفل.

دفعهم إلى النزول في ميدانهم فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتى أدركت شؤم ما فعلت، وعلمت أن شهادة التوبة قد سقطت مني في ذلك المعترك، فقلت: قبح الله الشعر والإعراب واللغة والآداب، إنها شؤم الآخرة والأولى.

وقفت أَحير من ضب في حمارة قيظ[١] لا أَدري ما أخذ، وما أَدع، حتى رميت بطرفي فإذا بأمير لامؤمنين علي بن أَبي طالب في لفيف من العترة[٢] الطاهرة النبوية فدلفت[٣] إليه وأبثثته[٤] أمري وأَمر الشهادة المفقودة فقال: لا عليك، ألك شاهد بالتوبة؟ قلت: نعم، فنودي بشهودي فشهدوا بتوبتي، فقال: تريث[٥] قليلاً حتى تمر فاطمة بنت محمد فنسألها في أَمرك، فهي تمت إلى أَبيها بما نمتُّ به[٦] وكانت ممن قسم لهم دخول الجنة قبل فصل القضاء إلا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها، ثم تعود إلى مستقرها؛ فإنا لكذلك، وإذا بمناد ينادي أن غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمدﷺ، فهرعت إليها، فرأيتها راكبة مع أخوتها وجواريها على أفراس من نور، وتقدم من وعدني بسؤالي في أمري، فأنجز وعده، فقالت لأَخيها إبراهيم: دونك الرجل، فقال: تعلق بركابي، فتعلقت، فطارت الأفراس في الهواء تقطع الأجيال وتتخطى رؤوس القرون، حتى وافينا محمداًﷺ، واقفاً لشهادة القضاء، فقصت عليه فاطمة ما علمت من أَمري، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمي في التائبين فشفع لي فعدت في ركب فاطمة فرحاً مستبشراً، وما كنت أقدر أن بين يدي عقبة الصراط، فلما وافيته وجدتني لا أستمسك عليه لرقته فأمرت فاطمة جارية من جواريها أن تعبر معي فأمسكت بيدي، فمشيت أترنح ذات اليمين وذات الشمال، وخفت السقوط فقلت لها: احمليني زقفونة، فقالت: وما زقفونة؟ فقلت: أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب:

صلحت حالني إلى الخلف حتى ... صرت أمشي إلى الورا زقفونة

---

(١) الحمارة ـ بالتشديد ـ شدة الحر.

(٢) عترة الشخص: عشيرته وأهله.

(٣) دلف: مشى مشياً متثاقلاً.

(٤) أبثه السر: كاشفه.

(٥) تريث: أبطأ.

(٦) تمت بالشيء: توسل به.

فقالت: ما سمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب، فقلت: ألقي يدي فوق كتفيك، واجعل بطني إلى ظهرك، فحملتني، وجازت بي الصراط كالبرق الخاطف، حتى صرت إلى باب الجنة، فرمت الدخول فوقف رضوان في وجهي وقال: أين جوازك[1] فبعلت[2] بالأمر؛ ثم رأيت في دهليز الجنة شجرة صفصاف فعالجته على أن يعطيني منها ورقة أعود بها إلى الموقف لأستكتب عليها الجواز فأبى؛ فقلت، وقد ملك الهم على رشدي وصوابي: أما والله لو أنك حارس على أبواب الكرماء، أو خازن لخزائن الملوك والأمراء لما وصل شاعر إلى درهم، ولا سائل إلى سحتوت[3]، ولهلك الفقراء بؤساً وجوعاً، فسمع إبراهيم عليه السلام حواري[4] فجذبني جذبة حصلني بها في الجنة وصاحبي ينظر إليّ شزراً فدخلت، فرأيت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

رأيت أنهاراً من الماء العذب أصفى من أديم السماء، وأصقل من مرآة الحسناء، تنصب فيها جداول من الكوثر، إذا جرع الشارب منها جرعة جرع ماء الحياة وأمن أن يذوق كأس المنون مرة أخرى، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضاً قد زينت حوافيها بأباريق من العسجد، وكؤوس من الزبرجد، فما نهلت منها نهلة حتى قلت لو كشف لأهل العاجلة عما في هذه الخمرة من اللذة لا يشوبها كدر، والنشوة التي لا يعقبها خمار[5] ما باعوا قطرة منها بكل ما تشتمل عليه بابل وقطر بل[6] من البواطي[7] والدنان، ولو نظر الأقيشر الأسدي بعين الغيب إلى عسجد هذه الأباريق وزبرجد تلك الكؤوس لخجل من نفسه أن يقول:

أفنى تلادي وما جمعت من نشب ... قرع القوازيز[8] أفواه الأباريق

وفي تلك الأنهار آنية ترفرف فوق سطحها على صورة الطيور كالراكي

(١) الجواز: صك المسافر.

(٢) بعل بأمره: برم به فلم يدر ما يصنع فيه.

(٣) السحتوت في الأصل: السويق القليل الدسم، ثم أطلق على كل شيء قليل.

(٤) الحوار: مراجعة الكلام.

(٥) الخمار: صداع الخمر.

(٦) بلدان معروفان بجودة خمرهما.

(٧) جمع باطية، وهي إناء للشراب يوضع بين الشرب للاغتراف منه.

(٨) القوازيز: جمع قازوزة، وهي قدح للشراب.

والطواويس والبط والعندليب ينحدر من مناقيرها شراب أرق من السراب وتسبح فيها أسماك من الذهب والياقوت:

يعمن فيها بأوساط مجنحة[1] كالطير تنشر في جو خوافيها

ورأيت أنهاراً من لبن، وأنهاراً من عسل لا يدرك الوهم كنهه إلا إذا أدرك ما يمتص نحل الجنة من أزهارها وأنوارها.

رأيت جميع تلك الأنهار مكبرة، ثم تمثلت في نظري مصغرة، فإذا هي سطور من النور، وأحرف بيضاء في صحيفة خضراء، قرأتها فرأيتها ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات**﴾.

ظللت أمشي فما أكاد أخطو خطوة حتى أرى منظراً عجباً ينسى السابق، ويشوق إلى اللاحق، فوددت لو طويت لي الأرض طياً فأتعجل النظر إلى ما غاب عني من الجنة وبدائعها. فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسي حتى رأيتِ بين يدي فرساً من الجوهر المتخير مسرجاً ملجماً فعلمت أني قد سعدت وإنها الأمنية التي كنت أتمناها، فعلت ظهره وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق[2] من السحاب، والسيف من القراب[3]، وعلى ما جهدته لم يشك إليّ ما شكاه جواد عنترة العبسي إليه في قوله:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

أو ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة إليه في قوله:

تشكي الكميت الجرى لما جهدته وبين لو يستطيع أن يتكلما

ذكرت أني، وأنا في الدار الفانية كنت أسمع بذكر الذاهبين الأولين من الأدباء والشعراء والرواة، فآسف على أن لم أكن في زمنهم أراهم وأحضر مجالسهم، فقلت ليت شعري ما فعل الله بهم في هذه الدار، وهل سعدوا أو شقوا، وهل يقيض لي من رؤيتهم في دار البقاء، ما لم يقيض في دار الفناء؟

---

(١) مجنحة: ذات أجنحة.

(٢) الودق: المطر.

(٣) قراب السيف: غمده.

ثم رميت بطرفي فإذا فارس يحضر فرسه[1] في الهواء إحضاراً حتى تقاربنا فتماست الركب واختلفت الأعناق، فقال؛ انتسب، فقلت: فلان، ومن أنت يرحمك الله، وقد فعل؟ فقال: عدي بن زيد العبادي، فدهشت وقلت: عدي ابن زيد في الجنة بعد الزيغ والضلال؟ فقال أنا عيسوي، وأنت محمدي، وليس لصاحبك على أحد حجة إلا بعد ظهوره، وبلوغ دعوته، فقلت: لا نكران؛ ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك، وأين استهتارك في قولك:

بكر العاذلون في وضح الصبح ... يقولون لي أَما تستفيق

ودعوا بالصبوح فجراً فجاءت ... قينة في يمينها إبريق

قال: غفر الله لنا ما غفر لكم، قلت: هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة فقد تمنيت على الله أن أراهم فكنت عنوان الكتاب وفاتحة الإجابة! فقال: أصحبني، فطارت بنا الخيل، فقلت له: هل آمن ألا يقذف بي هذا السابح على صخرة من الزمرد أو هضبة من الياقوت فيكسر لي عضداً أو ساقاً؟ فتبسم، وقال: أين يذهب بك؟ نحن في دار الخلود والبقاء.

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمرى على شاطئه جمع كثير على سرر متقابلين، أو على الأرائك متكئين، فهوى صاحبي بفرسه فهويت هويه، وقلنا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار، فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا، ثم أخذوا فيما كانوا فيه، فإذا الأَصمعي ينشد مروياته، وأبو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل الفرسان، وإذا سيبويه والكسائي متصافيان بعد أن وقع بينهما في مجلس البرامكة ما وقع، وأحمد بن يحيى لا يضمر لمحمد بن زيد من الموجدة ما كان يضمر، وأخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني بقول أعشى ميمون:

مثل ريح المسك ذاك ريحها

وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه وشقاءه، وقلت في نفسي؛ لولا أن قريشاً صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا، فسمعت هاتفاً من ورائي يقول: أنا بينكم، وفي مجلسكم، فالتفت فإذا الأعشى ميمون، فلم أدر من أين مدخليه[2] أعجب، أمن مدخله إلى الجنة؟ أم من مدخله إلى نفسي، وعلمه بما

---

(١) أحضر الفرس: ارتفع في عدوه.

(٢) المدخل: مصدر دخل، كالدخول.

هجس في صدري؟ فعلمت أن أهل الجنة ملهمون، ثم سألته: كيف غفر لك؟ فقال: سحبتني الزبانية إلى سقر فرأيت في عرصات القيامة رجلاً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر والناس يهتفون به من كل جانب: الشفاعة يا محمد، فأخذت أخذهم، وهتفت هتافهم فأمر أن أدنو منه، فدنوت فسألني: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القائل:

ألا أيهذا السائل إن يممت ... فإن لها في أهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من وجى حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخى عند باب ابن هاشم ... تراحى وتلقى من فواضله ندا
نبي يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا

فقال: ما سمعتها منك قبل اليوم، فقلت: خدعتني عنك الناس بعد ما شددت راحلتي إليك، وكنت رجلاً أحب الشراب وخفتك عليه أن تفرق بيني وبينه، فشفع لي، فدخلت الجنة على ألا أذوق فيها الخمر، فقنعت بالرضاب عن الشراب، وبماء الثغر المنضود عن ماء العنقود، ورأيت بجانبه شاباً ريق الشباب، فسألت عنه فقيل له: زهير بن أبي سلمى، فما كدت أصدق أنه اقائل:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

فقلت له: بم غفر الله لك؟ فقال: كنت في جاهليتي أترقب مبعث محمد، وأتمنى البقاء حتى أراه، فحال بيني وبينه الموت؛ فأوصيت به ابني كعباً وبحيراً وكنت أؤمن بالحساب فما نفعني شيء ما نفعني قولي:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ... ليوم الحساب أو يقدم فينقم

وإلى جانب زهير، عبيد بن الأبرص، فسألته عن مصير أمره؟ فقال: كتبت لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي:

من يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب

والعذاب يخفف عني شيئاً فشيئاً حتى خرجت ببركة هذا البيت من الجحيم إلى النعيم.

ذهبنا في الحديث كل مذهب وذهب بعضنا إلى ارتشاف الخمر من النهر، في آنية الدر، فانتشينا جميعاً فما أفقنا إلا على حفيف رف[1] من إوز الجنة نزل

(١) الرف: الطيع من الطير.

بنا، ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزج، فما أتين على الألحان الثمانية حتى دارت بنا الأرض الفضاء، وحتى ملكنا من الطرب ما يستخف الحلوم ويطير بالهموم، وقلنا: لو علم جبلة بن الأيهم بما نحن فيه، لقرع السن على أن باع دينه بسرور محدود وأنس معدود، ودف وعود.

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى: **﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم﴾** فتمنيت أن أطلع فأرى المعذبين كما رأيت المنعمين؛ فألهمت الإذن؛ فأشرت لصاحبي فقام وقمت، وركبنا فرسينا فطارتا بنا حتى انتهيا إلى سور الجنة فرأينا عنده من الداخل كوخاً يسكنه شيخ زري الهيئة، فأشرفنا عليه فقال: لا تعجبوا لشأني، أنا الحطيئة.. فوالله لولا أني صدقت مرة واحدة في حياتي في قولي:

أرى وجهاً شوّه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

لما دخلت الجنة.. ولما أدركت كوخاً ولا حجراً؛ فتركناه.. وطلعنا، فلما رآنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد **﴿أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾** فرأينا ملوكاً وأكاسرة يتضاغون[1] في السلاسل والأغلال ويقولون: **﴿ربنا ارجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾** فيهتف بهم هاتف **﴿أو لم نعمركم؟ ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾**.

ورأيت بجانبي امرأة تبينتها فإذا هي الخنساء، تطلع مثلنا فترى رجلاً كالجبل الأشم على رأسه شعلة من النار. فتمتعض وتقول: يا صخرة.. هذا تأويل قولي فيك من قبل:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه النار

ورأيت هناك كثيراً من أمثال امرىء القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد، ورأيت بشاراً بن برد تفتح عيناه بكلاليب من نار، وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله، وقال له ما كنت لأدخل النار لولا قولي فيك:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

---

(١) يقال: بات الصبيان يتضاغون من الجوع، أي: يتضورون منه.

وجزعنا من المنظر فهممنا بالرجوع. . وإذا إبليس يهتف بنا: يا أهل الجنة! بغلوا عني أباكم آدم أني لم أدخل النار بسببه حتى أخذت معي أكثر ولده وأفلاذ كبده، فلا يهنأ كثيراً بمصيري، فقلنا: قبحه الله، ما يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم، فما كان لنا همّ بعد رجوعنا إلا لقاء أبينا آدم عليه السلام. . فلقيناه. . فبلغناه الرسالة، فقال وارحمتاه له، ما كان بينه وبين الإيمان إلا القليل. . فأرداه الحسد فكان من المهلكين. . فقبلنا يده وانصرفنا إلى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة وحرير. . وحور وولدان، كأنهم الياقوت والمرجان، فحمدنا الله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

عبرة الدهر

بني فلان في روضة من بساتينه الزاهرة قصراً فخماً يتلألأ في تلك البقعة الخضراء تلؤلؤ الكوكب المنير في البقعة الزرقاء.. ويطاول بشرفاته الشماء أفلاك السماء، كأنه نسر محلق في الفضاء، أو قرط معلق في أذن الجوزاء، وكأن شرفاته آذان تفضي إليها النجوم بالأسرار، وطاقاته أبراج تنتقل فيها الشموس والأقمار.

شاده مرمراً وجلله كلسا   فللطير في ذراه وكور[1]

ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقة[2] لرسام إلا أجرها في سقوفه وجدارنه وطاقاته وأركانه حتى ليخيل إلى السالك بين أبهائه[3] وحجراته، ومحاربيه وعرصاته[4] أنه يتنقل من روضة تزهر بالورود الحمراء، والأنوار البيضاء، إلى بادية تسنح فيها الذئاب الغبراء؛ والنمور الرقطاء، ومن ملعب تصيد فيه الظباء الأسود، إلى غاب تصيد فيه الأسود الظباء، وأنشأ في كبرى ساحاته، وأوسع باحاته: صهريجاً من المرمر مستديراً يضم بين حاشيته فوارة ينفر الماء منها صعداً كأنه سيف مجرد، أو سهم مسدد، فيخيل إلى الرائي أن الأرض تثأر لنفسها من السماء وتتقاضاها ما أراقت منها من الدماء، تلك تقاتلها بالرجوم والشهب، وهذه تحاربها بالسهام والقضب. وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات مؤلفات ومختلفات، وأغصان، صنوان وغير صنوان، ذا رنحتها نسائم الأسحار.. رقصت فوق بساط الأزهار، وتحت ظلال الأثمار، فغنت على

---

(١) الكلس: الصاروج يبنى به.

(٢) ليقة الدواة: صوفتها، ويتخذها أيضاً لجمع أخلاطه فيها.

(٣) الأبهاء، جمع بهو، وهو البيت المقدم أمام البيوت.

(٤) المحراب هنا: صدر البيت، والعرصات، جمع عرصة: وهي ساحة الدار.

رقصها الأطيار، غناء الأغاريد لا غناء الأوتار، وادخر فيه لنعيمه وبلهنيته[1] ما شاء الله أن يدخل من نضائد[2] ومقاعد، ووسائد ومساند، وفرش، وعرش، وكلل[3] وحجل[4]، وتماثيل وتهاويل[5] وصحاف من ذهب، كاللهب، وأكواب من بلور، كالنور، وأقفاص للحمائم والنسور، ومقاصير للسباع والنمور، وعربات وسيارات، وجياد صافنات، ووصائف وولائد، تحيط بالمجالس والموائد.. إحاطة القلائد.. بأعناق الخرائد.. وخدم حسان.. تنتقل في الغرف والقيعان.. تنقل الولدان في غرف الجنان.

في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب، غدافية[6] الإهاب، أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك في سريره وفتح عينيه فلم ير أمامه غير خادمه «بلال»، وهو خصي أسود من ذوي الأسنان، رباه صغيراً وكفله كبيراً، وكان يجمع بين فضيلتي الذكاء والوفاء، فأشار إليه إشارة الواله المتلهف أن يأتيه بجرعة ماء، فجاء بها، فتساند على نفسه حتى شرب، وكأن الماء قد حل عقدة لسانه، فسأله: في أي ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال؟ فأجابه: نحن في الهزيع الأخير يا سيدي، فقال: ألم تعد سيدتك إلى الآن؟ قال: لا؛ فامتعض امتعاضاً شديداً وزفر زفرة كادت تخترق حجاب قلبه، ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول: إنها تعلم أني مريض، وأني في حاجة إلى من يسهر بجانبي ويتعهد أمري ويرفه[7] عني بعض ما أعالجه، وليس بين سكان القصر من هو أولى بي وأقوم عليّ منها، وأين وفاؤها الذي كانت تزعمه وتقسم لي بكل محرجة من الأيمان عليه؟ أين حبها الذي كانت تهتف به في صباحها ومسائها وبكورها وأصائلها؟ أين النعيم الذي كنت أقلبها في إعطافه والعيش الذي كنت أرشفها كؤوسه؟ أإن علمت أني أصبحت بين حياة لا أرجوها، وموت لا أجد السبيل إليه برمت[8] بي واستثقلت ظلي واستبطأت أجلي واستطالت ضجعي، فهي تفر من وجهي كل ليلة إلى حيث

---

(١) بلهنية العيش: رخاءه.

(٢) النضائد: جمع نضيدة، وهي الوسادة.

(٣) جمع (كله) بالكسر: وهي الستر الرقيق.

(٤) جمع (حجلة) بفتحات: وهي ستر العروش في جوف البيت.

(٥) التهاويل: النقوش والصور؛ لأنها تهول من ينظر إليها.

(٦) الغداف: الغراب الأسود؛ وليلة غدافية شبيهة به.

(٧) رفه عنه: نفس عنه وخفف.

(٨) برم به: سئمه وضجر منه.

تجد لذات العيش ومواطن السرور، آه من العيش ما أطوله، وآه من الموت ما أبعده!

ما زال يحدث نفسه بمثل هذه الأحاديث، حتى هاج ساكنه واضطربت أعصابه. فعاودته الحمى وغلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيها من كأس الموت جرعاً مريرة، بيد أنه لشقائه لم يأت على الجرعة الأخيرة منها.

أفاق من غشيته مرة ثانية، فلم ير بجانبه تلك التي تسيل نفسه حسرات عليها، فسأل الخادم: ألا تعلم أين ذهبت سيدتك يا بلال؟ قال: خير لك ألا تنتظرها يا مولاي، وألا تلومها في بعدها عنك؛ فإن لها عند بعض الناس ديناً فهي تخرج كل ليلة لتتقاضاه؛ قال: ما عرفت قبل اليوم أن بينهاوبين أحد من الناس شيئاً من ذلك، ومتى كان الدائن يتقاضى دينه في مثل هذه الساعة من الليل؟ وهل أعياها أن تجد من يقوم لها بذلك، فهي تتولاه بنفسها؟ وهل فرغت من أمر دينها بعد اختلافها إليه سنة كاملة! قال: إن بينها وبين غريمها صكاً مكتوباً أن يؤدي ما عليه من الدين أقساطاً في كل ليلة قسط، على أن تتناوله بيدها وأن تكون مواعيد الوفاء أخريات الليالي، قال: ما سمعت في حياتي بأغرب من هذا الدين ولا بأعجب من هذا الصك، ومن هو غريمها؟ قال: أنت يا سيدي. فنظر إليه نظرة الحائر المشدوه[1] وقال: إني أكاد أجن لغرابة ما أسمع، وأحسب أنك هاذ فيما تقول أو هازىء. فدنا منه الخادم وقال: والله يا سيدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت، ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها خارج النزل بين شهوة تطلبها، وكأس تشربها، وملاعب تجرر فيها أذيالك، ومراقص تهتك فيها أموالك، تاركاً زوجتك في هذه الغرفة على هذا السرير تشكو الوحشة وتبكي الوحدة، تتقلب على أحر من الجمر شوقاً إليك ووجداً عليك، فلا تعود إليها إلا إذا شاب غراب الليل وطار نسر الصباح؛ إنك سلبتها تلك الليالي السابقة فأصبحت غريمها فيها، فهي تستردها منك اليوم ليلة ليلة حتى تأتي عليها، ذلك هو دينها وهذا غريمها؛ ألا تذكر أنك كنت في لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتملكها عليه وهو واقف موقفك هذا في حسرتك هذه، يبكي ما تبكي ويندب ما تندب؟ ذلك الزوج هو الذي يتقاضاك

(١) المشدوه: المدهوش.

اليوم حقه، ويأبى إلا أن يأخذه عيناً بعين ونقداً بنقد، فهو يفجعك في زوجتك كما كنت تفجعه في زوجته، ويقض[1] مضجعك كما تقض مضجعه، وأنا أعيذك بعدلك وإنصافك أن تكون من لواة الدين، أو تكون من الظالمين.

قال حسبك يا بلال؛ فقد بلغت مني، وإن لي في حاضري ما يشغلني عن ماضي، فأدع لي ولدي، قال: لم يعد يا يدي من الوجه الذي بعثته فيه حتى الآن، قال: لا أذكر أني بعثته في وجه ما، وأين ذهب، قال: ذهب إلى الحانة التي يختلف إليها، ولن يرجع منها حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع، إنني طالما وقفت بين يديك يا مولاي ضارعاً إليك أن تحول بينه وبين خلطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك، فكنت تعرض عني إعراض من يرى أن تدليل الولد وترفيهه[2] وإرخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال؛ كنت أسألك أن تعلمه العلم وأن تهديه إلى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة، فكنت ترى أن الذي يحتاج إلى العلم إنما هو الذي يرتزق منه. وإن ولدك عن ذلك من الأغنياء، فلا تشك من عمل يديك، ولا تبك من جناية نفسك عليك، فأنت الذي أرسلته إلى الحانة، وأنت الذي أبقيته فيها إلى مثل هذه الساعة من الليل، وأنت الذي أبعدته عن فراشك أحوج ما كنت إليه.

وما وصل الخادم من حديثه إلى هذا الحد حتى نصل الليل من خضابه واشتعل المبيض في مسوده، وإذا صوت الناعورة يرن في بستان القصر رنين الثكلى فقدت واحدها، فقال السيد: هات يدك يا بلال واحملني إلى جوار النافذة لأروّح عن نفسي بعض ما ألم بها، أو أودع إلى جانبها نسمات الحياة، ثم اعتمد على يده حتى وصل إلى النافذة: فجلس على متكأ طويل وألقى على البستان نظرة طويلة فرأى البستاني وزوجه جالسين إلى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال أثوابهما البالية بريق الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة. رآهما متحابين متعاطفين؛ لا يتعاتبان ولا يتشاحان[3] ولا يشكوان هما ولا يندبان حظاً؛ رآهما قويين نشيطين يجري دمهما في عروقهما صافياً متسلسلاً وكأنهما

---

(١) أقض مضجعه: جعله خشناً.

(٢) رفهه: جعله مرفهاً، أي لين العيش.

(٣) من المشاحة. وهي المخاصمة والمجادلة.

يحاولان أن يخرجا من إهابهما[1] مرحاً ونشاطاً؛ رآهما راضيين بما قسم الله لهما من خشونة الملبس وجشونة[2] المطعم فلا يتشهيان ولا يتمنيان ولا ينظران إلى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة؛ سمعهما يتحدثان فأصغى إليهما فإذا البستاني يقول لزوجه: والله لو وهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه، وآنيته وخرثيه[3]؛ على أن تكون لي تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة في منقطع العمران، على البقاء في مثل هذا المكان أقاسي تلك الهموم والأحزان. فقالت: لا أحسب أن سيدنا ينجو من خطر هذا المرض، فقد مر به على حالته تلك عام كامل، وهو يزداد كل يوم ضعفاً ونحولاً، قال: قد علمت أن الطبيب قد نفض يده من لارجاء فيه وأضمر اليأس منه. ولا عجب في ذلك، فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها: قالت: ما أشقاه، أكانت نفسه عدوة إليه فجنى عليها هذا الشقاء، وذلك البلاء، قال: ما كان عدواً لنفسه، ولا كانت نفسه عدوة إليه، ولكنه كان رجلاً جاهلاً مغروراً، غره شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه قد أخذ على الدهر عهداً بالسلامة والبقاء فانطلق في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتفرها لنفسه؛ قالت: أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده؟ قال: أعلم أنه سيكون لولده؛ قالت: ولكنني أعلم أنه سيكون لفلان، قال: إن فلاناً ليس وريث السيد بل صديقه، قالت: إنه ليس بصديق السيد، بل صديق السيدة، فهو خاطب زوجته قبل وفاته، وزوجها بعد مماته.

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطراباً شديداً، وسقط عن كرسيه وهو يقول: أشهد أني من الأشقياء. وما زال في غشيته تلك حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم.

رأى ولده لاهياً بمحادثة فتاة من فتيات القصر، ورأى زوجته تضاحك ترباً من أترابها وتغمزها بطرفها أن قد حان حينه ودنا أجله، ورأى صديقه أو ولي عهده يأمر في القصر وينهي، ويتصرف تصرف السيد المطاع، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت، ويعد عدته للانتقال من القصر إلى القبر، وهنا سمع كأن هاتفاً

(١) الإهاب: الجلد.

(٢) جشونة المطعم: خشونته.

(٣) الخرثي: أثاث البيت.

يهتف به من السماء ويقول: أيها الرجل، لو وفيت لزوجك لوفت لك، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك، ولو أحسنت اختيار صديقك ما خانك، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك.. فأغمض عينيه وهو يقول «فلتكن مشيئة الله».

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعاً بزوجته وولده وصديقه ونفسه وبستانه وقصره:

رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال

أفسدك قومك

أيها المجرم الفاتك الذي يسلب الخزائن نفائسها، والأجسام أرواحها، لست أحمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبك، ولا أنظر إليك بالعين التي نظر بها إليك القاضي الذي قسا في حكمه عليك، لأني أعتقد أن لك شركاء في جريمتك. فلا بد لي من أن أنصفك، وإن كنت لا أستطيع أن أنفعك.

شريكك في الجريمة أبوك، لأنه لم يتعهدك بالتربية في صغرك، ولم يحل بينك وبين مخالطة المجرمين، بل كثيراً ما كان يبخبخ[1] لك إذا رآك هجمت على تربك وضربته، ويصفق لك إذا رأى أنك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك، أو اختطاف لقمة من يده، فهو الذي غرس الجريمة في نفسك وتعهدها بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذي أنت معلق به اليوم، وها هو ذا الآن يذرف عليك العبرات، ويصعد الزفرات، ولو عرف أنها جريمته، وإنها غرس يمينه لضحك مسروراً بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكراً على أن لم يكن حبلك في عنقه وجامعتك[2] في يده.

شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنساني الفاسد الذي أغراك بها، مهد لك السبيل إليها، فقد كان يسميك شجاعاً إذا قتلت، وذكياً فطناً إذا سرقت، وعالماً إذا احتلت، وعاقلاً إذا خدعت، وكان يهابك هيبته للفاتحين، ويجلك إجلاله للفاضلين، وكثيراً ما كنت تحب أن ترى وجهك في مرآته وجهاً أبيض ناصعاً، فتتمنى أن لو دام لك هذا الجمال؛ ولو أنه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديث عن نفسك لمثل لك جريمتك بصورتها الشوهاء، وهنالك ربما وددت يجدع الأنف لو طواك بطن الأرض عنها وحالت المنية بينك وبينها.

---

(١) بخبخ: قال له «بخ بخ».

(٢) الجامعة: الغل.

شريكك في الجريمة حكومتك؛ لأنها كانت تعلم أن الجريمة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات، وكانت تراك تمسك بها حلقة حلقة. وتعلم ما سينتهي إليه أمرك فلا تضرب على يدك، ولا تعترض سبيلك؛ ولو أنها فعلت لما اجترمت، ولا وصلت إلى ما إليه وصلت.

كانت حكومتك تستطيع أن تعلمك وتهذب نفسك، وأن تغلق بين يديك أبواب الحانات والمواخير، وأن تحول بينك وبين مخالطة الأشرار بإبعادهم عنك وتشريدهم في مجاهل الأرض ومخارمها.. وأن تعديك[1] على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك.. وأن تحسن تأديبك في الصغيرة قبل أن تصل إلى الكبيرة.. ولكنها أغفلت أمرك فنامت عنك نوماً طويلاً.. حتى إذا فعلت فعلتك استيقظت على صوت صراخ المقتول.. وشمرت عن ساعدها لتمثل منظراً من مناظر الشجاعة الكاذبة.. فاستصرخت جندها؛ واستنصرت قوتها وأعدت جذعها وجلادها؛ وكان كل ما فعلت أنها أعدمتك حياتك.

هؤلاء شركاؤك في الجريمة.. وأقسم لو كنت قاضياً لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك في الجريمة ولجعلت تلك الجزوع قسمة بينك وبين شركائك ولكني لا أستطيع أن أنفعك.

فيا أيها القتيل المظلوم: رحمة الله عليك.

---

(١) أعدى الأمير فلاناً على فلان، إذا نصره وأعانه عليه.

الصدق والكذب

جاءني هذا الكتاب من أحد الفضلاء.

يا صاحب النظرات:

سمعت بالصدق، وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر.. وسمعت بالكذب.. وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب وأليم العقاب.. وقرأت ما كتبه حكماء الأمم من عهد آدم إلى اليوم.. وإجماعهم أن الصدق فضيلة الفضائل والأصل الذي تتفرع عنه جميع الأخلاق الشريقة.. والصفات الكريمة.. وإنه ما تمسك به متمسك إلا كان النجاح في أعماله ألصق به من ظله.. وأعلق به من نفسه. سمعت هذا وقرأت ذاك فلم يبق في نفسي ريب في أن ما أنا مرزوء به في حظي من الشقاء، وعيشي من الضنك، وحياتي من الهموم والأكدار، إنما جرّه عليّ شؤم الكذب، وأن ما كنت أتخيله قبل اليوم من أن هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة، إنما هو ضرب من ضروب الوهم الباطل.. ونزعة من نزعات الشيطان، فعاهدت الله ونفسي ألا أكذب ما حييت، وأعددت لذلك القسم العظيم عدته من شجاعة نفس وقوة عزيمة بعد ما وجهت وجهي إلى الله تعالى وسألته أن يمدني بمعونته ونصره.

ها أنا ذاكر لك مواقف الصدق التي وقفتها بعد ذلك العهد، وما رأيته من آثارها ونتائجها.

الموقف الأول: جلست في حانوتي فما وقف بين مساوم إلا صدقته القول في الثمن الذي اشتريت به السلعة والربح الذي أريده لنفسي منها والذي لا أستطيع أن أعد نفسي رابحاً إذا تجاوزت عن بعضه.. فيأبى إلا الحطيطة[1] فآباها عليه، فينصرف عني استثقالاً للثمن واستعظاماً لقدره، وما هو إلا الربح الذي

(١) الحطيطة: ما يحط من الثمن.

اعتدت أن آخذه منه في مثل تلك الصفقة، إلا أنني كنت أكذب عليه في أصل الثمن فيصغر في نظره الربح، فلما صدقته عنه أعظمه وانصرف عني إلى سواي، ولم أزل على هذه الحال حتى أظلني الليل، ولم يفتح الله عليَّ بقوت يومي، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت في السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق.

الموقف الثاني: جلست في مجلس يتصدره شيخ من تجار العقول الضيقة المعروفين بمشايخ الطرق.. وقد حف به جماعة من عبدته وسدنة[1] هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحاً غريباً يذهب فيه إلى أن القعود عن العمل، وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه، وإعراض عن كل سعي يؤدي إلى أية غاية، ويعتمد في هذيانه هذا على آيات يؤولها كما يشاء، وأحاديث لا يستند في صحتها على مستند سوى أنه سمعها من شيخه، أو قرأها في كتابه، وأكثر ما يدور على لسانه حديث «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا»[2]. فقلت له، وقد أخذ الغيظ من نفسي مأخذه: يا شيخ: أردت أن تحتج لنفسك فاحتججت عليها، أتعمد إلى حديث يستدل به رواته على وجوب السعي والعمل فتستدل به على البطالة والكسل، ألم تر أن الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطير الرواح بطاناً إلا بعد أن أمرها بالغدو، وهي التي ترويها القطرة، وتشبعها الحبة، فكيف لا يأمر الإنسان بالسعي، وهو من لا تفني مطالبه، ولا تنتهي رغباته؟

أيها القوم، إنكم تقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم، إنكم عجزتم عن العمل، وأخلدتم إلى الكسل، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذراً يدفع عنكم هاتين الوصمتين فسميتم ما أنتم فيه توكلاً، وما هو إلا العجز الفاضح، والإسفاف الدنيء.

وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ، ونادى في قومه: أن أخرجوا هذا الزنديق الملحد في مجلسي، فتألبوا عليّ تألبهم على قصاع الثريد، وأوسعوني لطماً وصفعاً، ثم رموا بي خارج الباب، فما بلغت منزلي حتى هلكت أو كدت، فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة إلا رموني بالنظر الشزر، وعاذوا بالله من رؤيتي كما يعوذون به من الشيطان الرجيم.

---

(١) السادان: خادم الهيكل أو خادم الكعبة والمراد به الحاجب، والجمع: سدنة.

(٢) الخماص جمع خميص، وهو ضامر البطن، والبطان جمع بطين، وهو ممتلىء البطن.

الموقف الثالث: لا أكتمك يا سيدي، أني كنت أبغض زوجتي بغضاً يتصدع له القلب، غير أني كنت أصانعها وأتودد إليها وأمنحها من لساني ما ليس له أثر في قلبي، مداورة لها وإبقاء على ما تحتويه يدي من صبابة مال كانت لها، فرأيت أن ذلك أكذب الكذب وأقبحه، فآليت على نفسي ألا أسدل بعد اليوم من دونها حجاباً يحول بينها وبين سريرتي، فانقطع عن مسمعها ذلك السلسبيل العذب من كلمات الحب، فاستوحشت مني وأظلم ما بيني وبينها، فما هي إلا عشية أو ضحاها، حتى وهنت تلك العقدة، وانحل ذلك الوثاق، وختمت سورة الفراق بآية الطلاق.

الموقف الرابع: حضرت مجتمعاً يضم بين حاشيته جماعة من الفضولين الذي تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون إلى الحديث عن الناس وتتبع عثراتهم، ويحاولون أن ينبشوا دفائن صدورهم، ويتغلغلوا في إطواء[١] سرائرهم؛ ويغالون في ذلك مغالاة الكيمائي في تحليله وتركيبه، فرأيتهم يتناولون بألسنتهم رجلاً عظيماً من أصحاب الآراء السياسية لا أعتقد أن بين السالكين مسلكه والآخذين أخذه من أخلص لأمته إخلاصه، أو وقف المواقف المشهورة وقوفه؛ أو لاقى في ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الأيام ما لاقاه، سمعتهم يسمونه خائناً، فوالله لأن تقع السماء على الأرض أحب إليّ من أن يتهم البريء أو يجازي المحسن سوءاً على إحسانه؛ سمعت ما لم أملك نفسي معه؛ فقلت يا قوم، أتطالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفاً[٢] ثم لا تزالون عبيد الأوهام، أسرى الخيالات، سراعاً إلى كل داع، سعاة مع كل ساع، تنظرون بغير روية، وتحكمون بغير علم، إنكم بعملكم هذا تزهدون المحسن في إحسانه؛ وتلقون الرعب في قلب كل عامل يعمل لأجلكم؛ وتثبطون همة كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم؛ أليس مما يلقي في النفس اليأس من نجاحكم وصلاح حالكم، أن نراكم طعمة كل آكل؛ ولعبة كل لاعب، ويستهويكم الكاذب بالكلمات التي تستهوي بها المرضعات أطفالهن ثم يدعوكم إلى مناوأة الصادق فتمنحون الأول ودكم وإخلاصكم، والثاني بغضكم وموجدتكم. خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم، فأرادوا شراً بي! فما خلصت من بينهم إلا وأنا ألمس رأسي بيدي لأعلم أين مكانها من عنقي!

---

(١) أطواء الثوب: طرائفه ومكاسر طيه.

(٢) يريد أن تاريخ الحرية في مصر قرن ونيف.

الموقف الخامس: قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طوماراً[1] كبيراً كنت ذاهباً إلى موعد لا بد لي من الوفاء به، فرض عليَّ أن يسمعني قصيدة من طريف شعره، وأنا أعلم الناس بطريقه وتليده، فاستعفيته بعد أن كاشفته بعذري فأبى، فانتحيت به ناحية من الطريق فأنشأ يترنم بالقصيدة بيتاً بيتاً، وأنا أشعر كأنما يجرعني السم قطرة قطرة، حتى تمنيت أنه لو ضربني بها جملة واحدة يكون فيها انقضاء أجلي ليريحني من هذا العذاب المنقطع والتمثيل الفظيع، وكلما أتى على بيت منها أقبل عليّ بوجهه، وأطال النظر في وجهي وحدق في عيني، ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسي، فإذا رأى تقطيب وجهي ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكأس فيستمر في شأنه حتى أنشد نحو خمسين بيتاً، ثم وقف وقال: هذا هو القسم الأول من أقسام القصيدة، فقلت؛ وكم عدد أقسامها يرحمك الله؟ قال: عشرة ليس فيها أصغر من أولها، قلت: أتأذن لي أن أقول لك يا سيدي إن شعرك قبيح، وأقبح منه طوله، وأقبح من هذا وذاك صوتك الخشن الأجش، وأقبح الثلاثة اعتقادك أني من سخافة الرأي وفساد الذوق بحيث يعجبني مثل هذا الشعر البارد عجباً يسهل عليّ فوات الغرض الذي ما خرجت من منزلي إلا لأجله. فتلقاني بضربة بجمع يده[2] في صدري، فرفعت عصاي وضربته بها على رأسه ضربة ما أردت بها ـ يعلم الله ـ إلا أن أصيب مركز الشعر من مخه فأفسده عليه فسقط مغشياً عليه. وسقطت القصيدة من يده فأسرعت إليها ومزقتها، ورحت نفسي منها، وأرحت الناس من مثل مصيبتي فيها، وكان الشرطي قد وصل إلينا فاحتملنا جميعاً إلى المخفر ثم إلى السجن حيث أكتب إليك كتابي هذا.

فيا صاحب النظرات أفتني في أمري، وأعنر ظلمة نفسي، فقد أشكل عليّ الأمر، وأصحبت أسوأ الناس بالصدق ظناً، بعد ما رأيت أني ما وقفت موقفه في حياتي إلا خمس مرات، فكانت نتيجة ذلك إفلاسي وخراب بيتي، واتهامي باليانة مرة والزندقة أخرى؛ ذلك إلى ما أقاسيه اليوم في هذا السجن من أنواع الآلام، وصنوف الأقسام.

❀ ❀ ❀

(١) الطومار: الصحيفة.

(٢) جمع اليد: هيئتها حين تقبضها.

أيها السجين.

كتبت إليّ ـ مسح الله ما بك، وألهمت صواب الرأي في حاليك ـ تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك في أمره، وكاد يزلق بك إلى الاعتقاد أَنه رذيلة الرذائل لا فضيلة الفضائل، وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل إلى نفسك، وأن يبلغ بك الجزع من نكبات العيش وضربات الأيام مبلغاً يذهب برشدك، ويطير بلبك؛ فما أنت بأول صادق في الأرض ولا بأول من لقي في سبيل الصدق شراً؛ وكابد ضراً.

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مراراتها حق الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطع دونه أَعناق الرجال.

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال، وإنما هي حالة من حالات النفس تسمو بها إلى أَرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال.

إن الذي يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله، أو يرفه بها عيشه، يحتقرها ويزدريها؛ لأَنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع.

ليس من صواب الرأي أن يجعل الإنسان حالة عيشه ميزاناً يزن به أخلاقه فإن اتسع عيشه اطمأن إليها، وإن ضاق أساء الظن بها، فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء، وبين الأرذلين كثيراً من ذوي النعمة والثراء!

لا يستطيع الرجل الفاضل أن يبلغ غايته من عيشه إلا إذا استطاع أن ينزل من نفوس الناس منازل الحب والإكرام، ولن يستطيع ذلك إلا إذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها، ولن يكونوا كذلك إلا إذا كانوا فضلاء أو أشباه فضلاء، والسواد الأَعظم الذي يمسك بيده أسباب العيش ويملك ينابيعه: سواد أبله ساذج يبغض الصادق لأنه يصادره في ميوله وأَهوائه وينقم منه جهله وغباوته، ويحب الكاذب لأَنه لا يزال يزين له أَمره حتى يحبب إليه نفسه، فلا بد للصادق من صدر يسع هموم العيش، وقلب يحمل بغض القلوب ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غايته من الفوز والانتصار.

الصدق جنة حفت بالمكاره، فإن كان للصادق في جنة الصدق أرب فليحمل في سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الإنساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية.

كما أن الجود يفقر والإقدام قتال، وكما أن لكل فضيلة من الفضائل آفة من

الآفات توعر طريقها وتبعد منالها إلا على أيدي الصابرين المخلصين، كذلك للصدق آفة من مصادقة الكاذبين وهم الأكثرون، للصادقين وهم الأقلون.

أتريد أَيها الرجل أن تسمى صادقاً، وأن تنال أشرف لقب يستطيع أن يناله بشر، وأن يوافيك المجد طائعاً مذعناً دون أن تبذل في سبيله شيئاً من مالك أو راحتك؟

إنك إن أردت ذلك أو قدرته في نفسك؛ تظلم الفضيلة ظلماً بيناً وترخص قيمتها وتلق بها في مدارج الطرق وتحت مواطىء النعال.

أيحزنك انصراف الأغنياء عن حانوتك أو اتهامك بالزندقة والإلحاد أو المروق والخيانة، وترى أن ذلك كثير في سبيل بلوغك منزلة الصدق وإحرازك فضيلته، وأنت تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلت، في سبيل إحراز ما أحرزت، فما ندموا ولا حزنوا؟

أيها السجين الشريف:

هنيئاً لك السجن الذي تكابده، وهنيئاً لك البغض الذي تحتمله، وهنيئاً العيش الذي تعالج همومه، فوالله لأَنت أرفع في نظري من كثير من أولئك الذين يعدهم الناس سعداء، ويسمونهم عظماء.

لا تظلم الصدق ولا تكن سيء الظن به، وكن أحرص الناس على ولائه ومودته، وإياك أن يخدعك عنه خادع، واصبر قليلاً يثمر لك غرسه ويمتد عليك ظله، وهنالك تجد في نفسك من اللذة والغبطة ما لو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم، وأرباب الكنوز كنوزهم، لما استطاعوا إليه سبيلاً.

النظامون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدؤون ساعة واحدة عن تصديع رؤوسنا وتمزيق أفئدتنا بهذه الصواعق التي يمطرونها علينا كل يوم من سماء الصحف، حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا في وسطها جدولاً أبيض مستطيلاً تخيلناه حية رقطاء، ففزعنا وألقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته.

من لي بذلك القلم العريض الذي يكتب به كتاب الصحف السياسية عناوين مقالاتهم في معرض التهويل والتفخيم، فأكتب به إلى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية:

أيها القوم: إن علماء الضاد الذي عرفوا الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى، لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه واشتقاقه وتصريفه، وإنما جروا في ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من أن يقفوا في تعريف الشعر عند هذا القدر ما دام لا يتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه وقوافيه وعلله وزحافاته.

لا تظنوا أن الشعر كما تظنون، وإلا لاستطاع كل قارىء بل كل ناطق أن يكون شاعراً؛ لأنه لا يوجد في الناس من يعجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقيع عليها من أخصر طريق.

أيها القوم: ما الشعر إلا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبدإ نشأته ولا تزال كامنة فيه كمون النار في الزند حتى إذا شدا[١] فاضت على أسلات أقلامه[٢] كما يفيض الكهرباء على أسلاكها، فمن أحس منكم بهذه الروح في نفسه فليعلم

---

(١) شدا: أخذ طرفاً من الأدب والعلم.

(٢) الأسلات جمع أسلة: وهي نبات رقيق الغصن.

أنه شاعر، أو لا فليكف نفسه مؤنة التخطيط والتسطير، وليصرفها إلى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة، فوالله للمحراث في يد الفلاح، والقدوم في يد النجار، والمسبر في يد الحداد: أشرف وأنفع من القلم في يد النظام.

فإن غم عليكم الأمر، وأعجزكم أن تعلموا مكان تلك الروح الشعرية من نفوسكم، فأعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليكم ويدلكم عليكم، حتى تكونوا على بينة من أمركم.

الحرية

استيقظت فجر يوم من الأيام على صوت هرة تموء[1] بجانب فراشي وتتمسح بي، وتلح في ذلك إلحاحاً غريباً، فرابني أمرها، وأهمني همها وقلت: لعلها جائعة، فنهضت، وأحضرت لها طعاماً فعافته، وانصرفت عنه. فقلت: لعلها ظمآنة، فأرشدتها إلى الماء فلم تحفل به وأنشأت تنظر إليّ نظرات تنطق بما تشتمل عليها نفسي من الآلام والأحزان، فأثر في نفسي منظرها تأثيراً شديداً، حتى تمنيت أن لو كنت سليمان أفهم لغة الحيوان، لأعرف حاجتها، وأفرج كربتها، وكان باب الغرفة مرتجاً، فرأيت أنها تطيل النظر إليه وتلتصق بي كلما رأتني أتجه نحوه، فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب، فأسرعة بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء، ورأت وجه السماء، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور، وانطلقت تعدو في سبيلها، فعدت إلى فراشي وأسلمت رأسي إلى يدي، وأنشأت أفكر في أمر هذه الهرة، وأعجب لشأنها وأقول: ليت شعري هل تفهم هذه الهرة معنى الحرية فهي تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها؟ أجل. إنها تفهم معنى الحرية حق الفهم، وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها، وما كان تضرّعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها إلا سعياً وراء بلوغها.

وهنا ذكرت أن كثيراً من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة، والوحش المعتقل في القفص، والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه، بل ربما كان بينهم من يفكر في وجهه الخلاص أو يتلمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه وأسقامه.

---

(١) المواء: صوت الهرة.

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها: أن يكون الحيوان الأعجم أوسع ميداناً في الحرية من الحيوان الناطق، فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته؟ وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل أن يصبح ناطقاً مدركاً؟

يحلق الطير في الجو، ويسبح السمك في البحر، ويهيم الوحش في الأودية والجبال، ويعيش الإنسان رهين المحبسين: محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد.

صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل وأغلالاً، وسماها تارة ناموساً وأخرى قانوناً، ليظلمه باسم العدل، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام.

صنع له هذه الآلة المخيفة، وتركه قلقاً حذراً، مروع القلب، مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وحركات لسانه وخطرات وهمه وخياله، لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه، فويل له ما أكثر جهله! وويح له ما أشد حمقه؟ وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه؟ أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه؟

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته، بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية، ولا يذرف دمعة واحدة عليها.

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من القيود، لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد في القفص، وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعاً من أشعة الحرية، ولا تخلص إليه نسمة من نسماتها.

كان في مبدإ خلقه يمشي عرياناً، أو يلبس لباساً واسعاً يشبه أن يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء، أو هبة النكباء، فوضعوه في القماط كما يضعون الطفل، وكفنوه كما يكفنون الموتى، وقالوا له: هكذا نظام الأزياء.

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته، فحالوا بينه وبين ذلك، وملأوا قلبه خوفاً من المرض أو الموت، وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب، وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم

السياسي، وأن يقوم أو يقعد أو يمشي أو يقف أو يتحرك أو يسكن، إلا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات.

لا سبيل إلى السعادة في الحياة، إلا إذا عاش الإنسان فيها حراً مطلقاً، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس.

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس، فمن عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة، يتصل أولها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر.

الحرية هي الحياة، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية.

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً، أو طارئاً غريباً؛ وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور، ويتعلق بأغصان الأشجار.

إن الإنسان الذي يمدّ يديه لطلب الحرية ليس بمتسوّل ولا مستجد، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية، فإن ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه، ولا يد لأحد عنده.



عبرة الهجرة

إن في أخلاق النبيﷺ، وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الأرض أو السماء، أو الماء أو الهواء.

إن ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وإيثاره، وصدقه وإخلاصه، أكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر، ومشي الشجر، ولين الحجر؛ وذلك لأنه ما كان يريبهم في الأولى ما كان يريبهم في الأخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين وكهانة الكهنة، وسحر السحرة، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده، ولا تركت له المعجزات في نفوس العرب ذلك الأثر الذي تركته، ذلك هو معنى قوله تعالى: **﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**.

كانﷺ شجاع القلب، فلم يهب أن يدعو إلى التوحيد قوماً مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاف شرسون متنمرون، يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم؛ ويحبون آلهتم حبهم لأبنائهم.

كان على ثقة من نجاح دعوته، فكان يقول لقريش ـ أشد ما كانوا هزءاً به وسخرية ـ: «يا معشر قريش، والله لا يأتي عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون، وتحبوا ما أنتم له كارهون».

كان حليماً سمح الأخلاق فلم يزعجه أن كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعثون[1] منه ويضعون التراب على رأسه، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى[2] الجزور، وهو في صلاته، بل كان يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

---

(١) يقال شعث فلان من فلان: تنقصه.

(٢) السلى للدواب بمنزلة المشيمة للإنسان.

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس، لبث في قومه ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبي دعوته إلا الرجل بعد الرجل، فلم يبلغ الملل من نفسه، ولم يخلص اليأس إلى قلبه، فكان يقول «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة، فهاجر إلى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون إلى الحركة، ومن طور الخفاء إلى طور الظهور.

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها أكبر مظهر من مظاهره، وكانت عيداً يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها أجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد في سبيل الله.

لقد لقيﷺ في هجرته عناء كثيراً ومشقة عظمى، فإن قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضناً به، بل مخافة أن يجد في دار هجرته من الأعوان والأنصار ما لم يجد بينهم، كأنما يشعرون بأنه طالب حق، وإن طالب الحق لا بد أن يجد بين المحقين أعواناً وأنصاراً، فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكراً بعدما ترك في فراشه ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عبثاً بهم وتضليلاً لهم عن اللحاق به، ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه يتسلقان الصخور، ويتسربان في الأغوار والكهوف، ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب، حتى انقطع عنهما الطلب وتم لهما، ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق.

إن حياة النبيﷺ أعظم مثال يجب أن يحتذيه المسلمون للوصول إلى التخلق بأشرف الأخلاق والتحلي بأكرم الخصال، وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول والإخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة إلى النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سبباً في علوه على الباطل.

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان وحكماء الرومان وعلماء الإفرنج، فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجدّ والعمل، والبر والثبات والحب والرحمة، والحكمة والسياسة، والشرف الحقيقي، والإنسانية الكاملة، وهي حياة نبيناﷺ، وحسبنا بها وكفى.

الإنصاف

إذا كان لك صديق تحبه وتواليه، ثم هجمت منه على ما لم يحل في نظرك، ولم يتفق مع ما علمت من حاله، وما اطرد عندك من أعماله، أو كان لك عدو تذم طباعه، وتنقم منه شؤونه، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك على الخصلة التي ذممتها وحمد عدوك على الخلة التي حمدتها، عدك الناس متلوناً أو مخادعاً أو ذا وجهين تمدح اليوم من تذم بالأمس، وتذم في ساعة من تمدح في أخرى، وقالوا: إنك تظهر ما لا تضمر، وتخفي غير الذي تبدي، ولو أنصفوك لأعجبوا بك وبصدقك، ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلالها، ولسموا ما بدا لهم منك اعتدالاً لا نفاقاً، وإنصافاً لا خداعاً، لأنك لم تغل في حب صديقك غلو من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه، ولم تتمسك من صداقته بالسبب الضعيف، فعنيت بتعهد أخلاقه، وتفقد خلاله، لإصلاح ما فسد من الأولى، واعوج من الأخرى.

إن صديقك الذي يبسم لك في حالي رضاك وغضبك، وحلمك وجهلك، وصوابك وسقطك، ليس ممن يغتبط بمودته، أو يوثق بصداقته، لأنه لا يصلح أن يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك، وتصدقك عن زينك وشينك وحلوك ومرك، وهو إما جاهل متهور في ميوله وأهوائه، فلا يرى غير ما تريد أن ترى نفسه، ولا ما لا يجب أن تراه؛ وإما منافق مخادع قد علم أن هواك في الصمت عن عيوبك وتجرير الذيول، فجاراك فيما تريد، ليبلغ منك ما يريد.

فها أنت ذا ترى أن الناس يعكسون القضايا، ويقبلون الحقائق، فيسمون الصادق كاذباً، والكاذب صادقاً؛ ولكن الناس لا يعلمون.



المدنية الغربية

سأودّع في هذه النظرة الخيال والشعر، وداع من يعلم أن الأمر أعظم شأناً وأجل خطراً من أن يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل أشبه منها بالجد، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جدّه وعمله.

إن في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها إلى أخلافنا من بعدنا، كما أداها إلينا أسلافنا سالمة غير مأروضة[1] ولا متآكلة، فإن فعلنا فذاك، أولاً فرحمة الله على الصدق والوفاء، وسلام على الكتاب الأمناء.

الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية، فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها، وذهبت أهرامها في سمائها، حتى تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

إن خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب تدني إليه أجله، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده إلى يوم يبعثون.

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغربال من دقيق الخبز، يمسك خشاره ويفلت لبابه، أو الراووق[2] من الخمر، يحتفظ بعقاره، ويستهين برحيقه؛ فخير له أن يتجنبها جهده، وأن يفر منها فرار السليم من الأجرب.

يريد المصري أن يقلد الغربي في نشاطه وخفته، فلا ينشط إلا في غدواته

(١) الخشب المأروض: الذي أكلته الأرضة.

(٢) الراووق، المصفاة.

وروحاته، وقعدته وقومته، فإذا جد الجد وأراد نفسه على أن يعمل عملاً من الأعمال المحتاجة إلى قليل من الصبر والجلد، دب الملل إلى نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء والكرى بين أهداب الجفون.

يريد أن يقلده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما إلا أن الأولى التأنث في الحركات، الثانية الاختلاف إلى مواطن الفسق ومخابىء الفجور.

يريد أن يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها إلا نعيقها ونعيبها، وضجيجها وصفيرها، فإذا قيل له: هذه المقدمات، فأين النتائج؟ أسلم رجليه إلى الرياح الأربع واستن في فراره استنان المهر الأرن[1] فإذا سمع صفير الصافر مات وجلاً، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلاً.

يريد أن يقلده في السياحة، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب الأرض الميتة فصل الربيع، حتى إذا حان حينه طار إلى مدن أوروبا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئاً مما حوله، ولا يلوي على شيء مما وراءه، حتى يقع على مجامع اللهو ومكان الفجور، وملاعب القمار، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب، لا يملك من الأول ما يقوده إلى طريق السفينة التي تحمله في أوبته، ولا من الثاني أكثر من الجعالة التي يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته، حادثة عودته موشاة بجمل الإجلال والاحترام مطرزة بوشائع الإكرام والإعظام.

يريد أن يقلده في العلم، فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شدقيه ترديداً لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق، ولا يعتصم به من جهل شائن.

يريد أن يقلده في الإحسان والبر، فيترك جيرانه وجارته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهاباً حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي أو كارثة ألمت بسد يأجوج ومأجوج سجل اسمه في فاتحة الاكتتاب، ورصد هبته في مستهل جريدة الحساب.

يريد أن يقلده في تعليم المرأة وتربيتها، فيقنعه من عملها مقال تكتبها في جريدة أو خطبة تخطبها في محفل؛ ومن تربيتها التفنن في الأزياء، والمقدرة على استهواء النفوس، واستلاب الألباب.

---

(١) الأرن: النشيط.

هذا شأنه في الفضائل الغربية، يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة لا يعرف لها مغزى، ولا ينتحى بها مقصداً، ولا يذهب فيها إلى مذهب، فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب، وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار، ويجارونهم في أداء صور العبادات، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر، أو كمثل الذين يتشبهون بعمر في ترقيع الثياب، وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود.

أما شأنه في رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي، فينتحر كما ينتحر الغربي، ويلحد كما يلحد، ويستهتر في الفسوق استهتاره، ويترسم في الفجور آثاره.

إن في المصريين عيوباً جمة في أخلاقهم وطباعهم، ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لا بد لنا من الدعوة إلى إصلاحها، فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية.

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا، لا بباريس ورومة وسويسرا ونيويورك، وإن دعوناهم إلى مكرمة، فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة؛ وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر؛ وإن دعوناهم إلى حرب، ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير، وصلاح الدين؛ ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر؛ وفي وقائع القادسية وعمورية وإفريقية والحروب الصليبية، ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار واوسترليتز والسبعين.

إن عاراً على التاريخ المصري أن يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية، ومن مبادىء ديكارت وأبحاث دارون ما لا يحفظ من حكم الغزالي وأبحاث ابن رشد، ويروي من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروي للمتنبي والمعري.

لا مانع من أن يعرب لنا المعربون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب، والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم، على أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم، فلا نأخذ كل قضية مسلمة، ولا نطرب لكل معنى أدبي

طرباً متهوراً، ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيتهم، على أن ننظر إليه نظر من يريد التبسط في العلم والتوسع في التجربة والاختبار، لا على أن نقلدها ونتقلدها وننتحلها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شؤوننا، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا.

وبعد. فليعلم كتاب هذه الأمة وقادتها: أنه ليس من عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً. فلا يخدعون أمتهم عن نفسها، ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها، ولا يزينوا لها تلك المدنية تزييناً يرزؤها في استقلالها النفسي، بعدما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي.

يوم الحساب

ساهرت الكوكب ليلة أمس حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً، وقد وقف الهم بيني وبين الكرى أجذبه فيدفعه، وأدنيه فيبعده، حتى أسلس قياده، وسكن جماحه.

لم تخالط جفني سنة الكرى حتى خيل إليّ أني قد انتقلت من العالم الأول إلى العالم الثاني، ورأيت كأني بعثت بعد الموت وكأن أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد يحاسبون على أعمالهم، فألهمت أنه موقف الحشر؛ وأنه يوم الحساب.

وأنشأت أمشي مشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً، ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلني على نفسي في هذا الموقف الذي ينشد فيه كل ذي نفس نفسه، فلا يجد إليها سبيلاً، فطفقت أتصفح وجوه الواقفين، وأقلب النظر في الغادين والرائحين؛ علني أجد صديقاً أستأنس به في وحدتي؛ وأستعين بمرافقته على وحشتي، فلا أرى إلا خلقاً غريباً، ومنظراً عجيباً، ووجوهاً ما رأيت لها في حياتي شبيهاً ولا ضريباً، ولولا أني أعلم أن الحساب خاص بالإنسان لظننت أن الله يحاسب في هذا الموقف جميع أنواع الحيوان.

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسي رأيت على البعد وجهاً يبتسم لي ويدنو مني رويداً رويداً؛ فأرقلت نحوه حتى بلغته فإذا صديقي «فلان» وإذا وجهه يتلألأ تلألؤ الكوكب في علياء السماء؛ فسألته ما فعل الله به؟ فقال حاسبني حساباً يسيراً ثم غفر لي، وهاأنذا ذاهب إلى ما أعدّ الله لعباده الصالحين في جنته من النعيم المقيم، فعجبت لشأنه وقلت في نفسي: لقد هان أمر الحساب على كل عاص بعدما هان على هذا الذي كنت أعرفه في أولاه: لا يتقي مأثماً، ولا يهاب منكرا؛ ولا يخرج من حان إلا إلى حان، ولا يودع مجمعاً من مجامع

الفسق إلا على موعد من اللقاء، فنظر إليّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها أن الرجل قد ألم بما ضمرته في نفسي، فذكرت أن قد كشف الغطاء في هذه الدار؛ وأن قد رفع الحجاب بين الناس: فلا سر ولا جهر، ولا بطن ولا ظهر، ولا فرق بين حركات اللسان وخطرات الجنان، نظر إليّ تلك النظرة وقال: لا تعجب لأمر في هذه الدار فكل ما فيها عجب، واعلم أن الله حاسبني على كل ما كنت أجترح من الآثام في الدار الأولى، إلا أنه وجد لي في جريدة حسناتي حسنة ذهبت بجميع السيئات: ذلك أنه كان لي جار من ذوي النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبر، نكبه دهره نكبة ذهبت بماله، فأهمني أمره وأزعجني أن أراه في مستقبل أيامه بائساً معدماً، يريق ماء وجهه على أعتاب الذين كان يسدي إليهم نعمته، فاحتلت على أن أدخل في بيته خادماً كانت في بيتي وجعلت لها جعلاً على أن تدس في كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بمأتاها، ولا يقف على سرّها؛ وما زال هذا شأني وشأنه، لا يعلم من أين يأتيه رزقه، ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله، وذهاب ماله، حتى فرّق الموت بيني وبينه، فما نفعني عمل من أعمالي ما نفعني هذا العلم، وما كان الإحسان وحده سبب سعادتي؛ بل كان سببها أنه أصاب الموضع وخلص من شائبة الرياء فهنأته بنعمة الله عليه وشكوت إليه وحشتي من الوحدة وخوفي من المحاسبة. فقال: أما الوحشة فلن أفارقك حتى يأتي دورك، أما الخوف فلا حيلة لي ولا لأحد من الناس في نقض ما أبرم الله في شأنك، فقلت: أنت من السعداء؛ فهل تستطيع أن تشفع لي أو تطلب لي شفاعة من ولي من الأولياء أو نبي من الأنبياء؟ قال: لا تطلب المحال، ولا تصدق كل ما يقال، فقد كنا مخدوعين في الدار الأولى بتلك الآمال الكاذبة التي كان يبيعها لنا تجار الدين بثمن غال ولا يتقون الله في غشنا وخداعنا؛ وما الشفاعة إلا مظهر من مظاهر الإكرام والتبجيل يختص به الله بعض المقرَّبين؛ فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن بالشفاعة لأحد إلا إذا كان بين أعمال المشفوع له أو في أعمال سريرته ما يقتضي إيثاره بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين، والله سبحانه وتعالى أجل من العبث وأرفع من المحاباة.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة العذاب تحيط برجل يساق إلى النار، ورأينا في يد كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه، وهو يصرخ ويقول: «أهلكتني يا أبا حنيفة» فسألت صاحبي: ما ذنب

الرجل؟ فقال: إنه كان في حياته يتخذ في أعماله ما يسمونه «الحيل الشرعية» فكان يهب ما لأحد أولاده على نية استرداده قبل أن يحول عليه الحول، ليتخلص من فريضة الزكاة، ويطلق زوجته ثلاثاً، ثم يأتي بمحلل يحللها له فيعود إلى معاشرتها؛ وكان يرابى باسم الرهن، فإذا جاءه من يريد أن يقترض منه مالاً أبى أن يقرضه إلا إذا وضع في يده رهناً، فإذا وضع يده على ضيعته ألزمه أن يستأجرها منه بمال كثير يراعي فيه النسبة التي يراعيها المرابون بين الربح وأصل المال؛ وكان إذا حلف لا يدخل بيتاً دخله من نافذته، أو لا يأكل رغيفاً أكله إلا لقمة منه، فذنبه أنه كان يعمد إلى الأحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها، ثم يرفعها إلى الله قشوراً جوفاء ليخدعه بها ويغشه فيها كما يفعل مع الأطفال والبله، مستنداً على تقليد أبي حنيفة أو غيره من كبار الأئمة، وأبو حنيفة أرفع قدراً وأهدى بصيرة، من أن يتخذ هزؤاً وسخرية، وأن يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين.

وما انقطع عنا صوت هذا الشقي، حتى رأينا شقياً آخر ذا لحية طويلة كثة، قد أحاط به ملكان وشدّا عنقه بسبحة طويلة ذات حبات كبيرة، وقد أخذ كل منهما بطرف منها، وهو يهمهم بكلمات مبهمة فيقرعه أحدهما على رأسه ويقول له: «أمكرَ وأنت في الحديد؟» فدنوت منه وأمعنتُ النظر في وجهه فعرفته، فتراجعت ذعراً وخوفاً وصحت أيكون هذا من أشقياء الآخرة، وقد كان بالأمس من أقطاب الأولى! فقال لي صاحبي: إن هذا الذي كت تحسبه في أولاه من الأقطاب كان أكبر تاجر من تجار الدين، وما هذه اللحية والسبحة والهمهمة إلا حبائل كان ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم، ولكن الناس لا يعلمون.

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا: هذا إلى جنته، وذاك إلى ناره، وأنا أسأل عن شأن كل منهم واحداً فواحداً فأرى سعيداً من كنت أحسبه شقياً، وشقياً من كنت أحسبه سعيداً، فسجلت أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على قلوبهم، لا على جوارحهم، ويسألهم عن نياتهم، لا عن أفعالهم، وأن لا سعادة إلا الصدق، ولا شقاء إلا الكذب، وعلمت أن الله لا يغفر من السيئات إلا ما كان هفوة من الهفوات، يلم بها صاحبها إلماماً، ثم يندم عليها، ورأيت أن أكبر ما يعاقب عليه جناية المرء على أخيه بسفك دمه أو هتك عرضه أو سلب ماله، وإن أضعف الوسائل إلى الله ذلك الركوع والسجود، والقيام والقعود، فلو أن امرأ قضى حياته بين ليل قائم، ونهار صائم، ظلم طفلاً صغيراً

في لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته إلى سيئات، وما أغنى عنه نسكه من الله شيئاً.

وبينما أنا أحدّث نفسي بهذا الحديث، وأقلب النظر في وجوه تلك المواعظ والعبر، إذ قال لي صاحبي: أتعرف هذين؟ وأشار إلى رجلين واقفين ناحية يتناجيان: أحدهما شيخ جليل أبيض اللحية، وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده؛ فما هي إلا النظرة الأولى حتى عرفت الرجلين العظيمين رجل الإسلام «محمد عبده» ورجل المرأة «قاسم أمين» فقلت لصاحبي: هل لك في أن ندنو منهما ونسترق نجواهما من حيث لا يشعران؟ ففعلنا؛ فسمعنا الأول يقول للثاني: ليتك يا قاسم أخذت برأيي وأحللت نصحي لك محلاً من نفسك فقد كنت أنهاك أن تفاجىء المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل أن تأخذ له عدته من الأدب والدين فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذلها وإراقة تلك البقية الصالحة التي كانت في وجهها من ماء الحياء؛ فقال له صاحبه: إني أشرت عليها أن تتعلم قبل أن تسفر، وأن لا ترفع برقعها قبل أن تنسج لها برقعاً من الأدب والحياء؛ قال له: ولكن فاتك ما كنت تنبأت به من أنها جاهلة لا تفهم هذه التفاصيل، وضعيفة لا تعبأ بهذا الاستثناء، فكنت كمن أعطى الجاهل سيفاً ليقتل به غيره فقتل نفسه، فقال: أتأذن لي يا مولاي أن أقول لك: إنك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ، وأنك نصحتني بما لم تنتصح به، أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول. وأنت أردت أن تحيي الإسلام فقلته؛ إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردت؛ وفهموا غير ما فهمت. فأصبحوا ملحدين، بعد أن كانوا مخرفين، وأنت تعلم أن ديناً خرافياً خير من لا دين. أولت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان والجنة والنار! وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها وسفهت لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لبابها، فتركوها جملة واحدة وقلت لهم: إن الولي إله باطل، والله إله حق؛ فأنكروا الألوهية حقها وباطلها؛ فتهلل وجه الشيخ وقال له: ما زلت يا قاسم في أخراك، مثلك في دنياك، لا تضطرب في حجة، ولا تنام عن ثأر، لا تحمل هماً، ولا تخش شراً، وثق أن الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا، إنا ما أردنا إلا الخير لأمتنا، وما أردنا لها إلا ما تحتمله عقولها، فإن كذبت فراستنا أو أخطأ تقديرنا فذلك لأن المستقبل بيد الله.

وما وصلا من حديثهما إلى هذا الحد حتى تركا مكانهما، وذهبا لشأنهما؛ فقلت لصاحبي: هل لك أن تريني الميزان والصراط والجنة والنار، فإني ما زلت في شوق إلى رؤية تلك الأشياء ورؤية مواقعها منذ رأيتها في «خريطة الآخرة» التي رسمها الشعراني في بعض كتبه، قال: أما الميزان فتقدير الأعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات، وأما الصراط فهو سبيل الإنسان إلى سعادته أو شقائها، وأما الجنة والنار فلا علم لي حتى الساعة بهما.

وبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتاً صارخاً ما قرع سمعي في حياتي مثله يناديني باسمي، فعلمت أن قد جاء دوري، فأدركني من الهول والرعب ما أيقظني من نومي، فاستيقظت فلم أر حساباً ولا عقاباً ولا موقفاً ولا محشراً، فعلمت أنها خيالات وأوهام، أو أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.



الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم أمام المرآة، فلمحت في رأسي شعرة بيضاء، تلمع في تلك اللمة السوداء لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء.

رأيت الشعرة البيضاء في مفرقي[1] فارتعت لمرآها كأنما خيل إليّ أنها سيف جرده القضاء على رأسي، أو علم أبيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرني باقتراب الأجل، أو يأس قاتل عرض دون الأمل، أو جذوة نار علقت بأهداب حياتي علوقها بالحطب الجزل، ولا بد لها مهما ترفقت في مشيتها واتأدت في مسيرها من أن تبلغ مداها، أو من خيط خيوط الكفن الذي تنسجه يد الدهر وتعده لباساً لجثتي عندما تجردها من لباسها يد الغاسل.

أيتها الشعرة البيضاء! ما رأيت بياضاً أشبه بالسواد من بياضك، ولا نوراً أقرب إلى الظلمة من نورك، لقد أبغضت من أجل كل بياض حتى بياض القمر، وكل نور حتى نور البصر وأحببت فيك كل سواد حتى سواد الغربان وكل ظلام حتى ظلام الوجدان.

أيتها الشعرة البيضاء! ليت شعري! من أي نافذة خلصت إلى رأسي؟ وفي أي مسلك من مسالك الدهر مشيت إلى فودي؟

كيف طاب لك المقام في هذه الأرض الموحشة التي لا تجدين فيها أنيساً يسامرك، ولا جليساً يساهرك، وكيف لم يرع قلبك لمنظر هذا الليل الفاحم ولم يعش بصرك في هذا الظلام القاتم.

أيتها الشعرة البيضاء! لقد عييت بأمرك، وبعلت[2] بحملك، وأصبحت لا

---

(١) المفرق: موضع افتراق الشعر.

(٢) بعل الشيء: برم به واستثقله.

أعرف وجه الحيلة في البعد عنك، والفرار من وجهك، لا ينفعني منك أن أنزعك من مكانك، لأنك لا تلبثين أن تعودي إليه، ولا ينقذني منك أن أخضبك بالسواد، لأنك لا تلبثين أن تنصلي[1] ولأني لا أحب أن أجمع على نفسي بين مصيبتين: مصيبة الشيب ومصيبة الكذب.

أيتها الشعرة البيضاء! يخيل إليّ وأنا أنظر إليك أنك من ذات الحيلة والدهاء والكيد والخبث، وأنك تهمسين في إذان إخواتك السود اللواتي بجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك، والتردي بردائك، وكأني بك.. وقد أشعلت في هذه البيئة الهادئة المطمئنة حرباً شعواء، وفتنة عمياء، يختلط فيها الرامح بالنابل[2] والدارع بالحاسر[3] ويهلك فيها القاعد والقائم والمظلوم والظالم..

إن كان هذا مصيرك فسيكون شأنك شأن ذلك السائح الأبيض، الذي ينزل بأمة الزنج مستكشفاً، فيصبح مستعمراً، ويدخل أرضها سلماً ويفارقها حرباً، فأسأل الله لرأسي العافية منك، ولأمة الزنج السلامة من صاحبك، فكلاهما مشؤوم الطلعة في مقامه وارتحاله، وكوكب النحس في وقوفه وتسياره.

أيتها الشعرة البيضاء! ما أنت وما شأنك؟ وما ودوك إليَّ؟ وما مكانك مني؟ وما مقامك عندي؟ إن كنت ضيفاً، فأين استئذان الضيف وتلطفه، وتجمله وتودده، وإن كنت نذيراً، فأنا أعلم من الموت وشأنه ما لا أحتاج معه إلى نذير، فلم يبق إلا تكوني أوقح الخلائق وجهاً؛ وأصلبها خداً، وإنك قد نزلت من السماجة والفضول منزلة لا أرى لك فيها شبيهاً إلا تلك الحية التي تلج كل جحر من أجحار الهوام والحشرات تعده جحرها، وتحسبه بيتها.

أيبلغ بك الشأن وأنت التي يضربون الأمثال بدقتها وخفائها، ويبعثون الملاقط والمقاريض وراءها، فلا يكادون يعرفون السبيل إلى مدارجها ومكانها أن تملئي من الرعب قلباً لا يروعه السيف المجرد، ولا السهم المسدد؟

أيتها الشعرة البيضاء! هل لك أن تتجاوزي عما أسأت به إليك في طالة عتبك، واستثقال ظلك؟ فلقد رجعت إلى نفسي فعلمت أنك أكرم الخلائق عندي، وأعظمها شأناً في عيني.

---

(١) نصل الشعر: خرج من الخضاب.

(٢) الرامح: حامل الرمح، والنابل: ذو النبل.

(٣) الدارع: لابس الدرع، والحاسر خلافه.

هنيئاً لك رأسي مصيفاً ومرتعاً، وهنيئاً لك فودي مراداً ومسرحاً، فأنت رسول الموت الذي ما زلت أطلبه منذ عرفته فلا أجد له سبيلاً، ولا أعرف له رسولاً.

ما الذي يحمله لك في صدره من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه، فيحزن على ذهابه؛ ولم يذق حلاوة الحياة، فيجزع لمرارة الممات، ولم يستنشق نسمات السعادة غصناً رطباً؛ فيأسى عليها عوداً يابساً.

ما الذي ينقمه من شؤونك رجل يعلم أنك وحي الأمل الذي يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناءة.. إلا لحظات قليلة يكدرها ما يحيط بها من الهموم والأحزان.. كما تكدر أنفاس الحزن الحارة صفحة المرآة.

أليس كل ما أعدَّه عليك من الذنوب أنك طليعة الموت، والموت هو الذي يخلصني من منظر هذا العالم المملوء بالشرور والآثام، الحافل بالآلام والأسقام الذي لا أغمض عيني فيه إلا لأفتحها على صديق يغدر بصديقه، وأخ يخون أخاه، وعشير يحدد أنيابه لمضغ عشيره، وغني يضن على الفقير بفتات مائدته، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغة الموت فلا يظفر بأمنيته، وملك لا يفرق بين رعيته وماشيته، ومملوك لا يميز بين ملك الملك وربوبيته، وقلوب تضطرم حقداً على غير طائل، ونفوس تتفانى قتلاً على لون حائل، وظل زائل، وغرض باطل، وعقول تتهالك وجداً على نار تحرقها وأنياب تمزقها، وعيون حائرة في رؤوس طائرة، تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها، وتلمع ولا تكاد تبصر ما أمامها؛ إن كان هذا هو ظاهر ذنبك عندي فاستكثري من ذنوبك، فإني لك من الغافرين.

أيتها الشعرة البيضاء! مرحباً بك اليوم، ومرحباً بأخواتك غداً.. ومرحباً بهذا القضاء المختبىء وراءك أو الكامن في أطوائك، ومرحباً بتلك الغرفة التي أخلو فيها بربي، وآنس بنفسي، من حيث لا أسمع حتى دوي المدافع، ولا أرى حتى غبار الوقائع.

أهلاً بوافدة للشيب واحدة   وإن تراءت بشكل غير مودود

❀ ❀ ❀



الصياد

حدّث أحد الأصدقاء قال: بينما أنا في منزلي صبيحة يوم إذ دخل علي رجل صياد يحمل في شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها عليَّ فلم أساومه فيها بل نقدته الثمن الذي أراده، فأخذه شاكراً متهللاً وقال: هذه هي المرة الأولى التي أخذت فيها الثمن الذي اقترحته، أحسن الله إليك كما أحسنت إليَّ وجعلك سعيداً في نفسك كما جعلك سعيداً في مالك؛ فسررت بهذه الدعوة كثيراً وطمعت في أن تتفتح لها أبواب السماء المغلقة دوني، وعجبت أن يهتدي شيخ عامي إلى معرفة حقيقة لا يعرفها إلا القليل من الخاصة، وهي أن للسعادة النفسية شأناً غير شأن السعادة المالية، فقلت له: يا شيخ، وهل توجد سعادة غير سعادة المال؟ فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال: لو كانت السعادة سعادة المال لكنت أنا أشقى الناس، لأنني أفقر الناس، قلت: هل تعد نفسك سعيداً؟ قال: نعم، لأنني قانع برزقي مغتبط بعيشي، لا أحزن على فائت من العيش، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطمع من المطامع، فمن أي باب يخلص الشقاء إلى قلبي؟ قلت: أيها الرجل، أين يذهب بك؟ ما أرى إلا أنك شيخ قد اختلس عقله، كيف تعد نفسك سعيداً وأنت حاف غير منتعل، وعار إلا قليلاً من الأسمال البالية، والأطمار السحيقة؟ قال: إن كانت السعادة لذة النفس وراحتها، وكان الشقاء ألمها وعناءها، فأنا سعيد؛ لأني لا أجد في رثاثة مبسي، ولا في خشونة عيشي، ما يولد لي ألماً، أو يسبب لي هماً، وإن كانت السعادة عندكم أمراً وراء ذلك، فأنا لا أفهمها إلا كذلك؛ قلت: ألا يحزنك النظر إلى الأغنياء في أثاثهم ورياشهم، وقصورهم ومراكبهم، وخدمهم وخيولهم، ومطعمهم ومشربهم؟ ألا يحزنك هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم؟ قال: إنما يصغر جميع هذه المناظر في عيني ويهونها عندي أني لا أجد أصحابها قد نالوا من السعادة بوجدانها أكثر مما نلته بفقدانها.

هذه المطاعم التي تذكرها إن كان الغرض منها الامتلاء فأنا لا أذكر أني بت ليلة في حياتي جائعاً، وإن كان الغرض منها قضاء شهوة النفس فأنا لا آكل إلا إذا جعت؛ فأجد لكل ما يدخل جوفي لذة لا أحسب أن في شهوات الطعام ما يفضلها؛ أما القصور فإن لدي كوخاً صغيراً لا أشعر أنه يضيق بي وبزوجتي وولدي فأقرع السن على إن لم يكن قصراً كبيراً؛ وإن كان لا بد من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبي أن أحمل شبكتي على عاتقي كل مطلع فجر وأذهب بها إلى شاطىء النهر فأرى منظر السماء والماء، والأشعة البيضاء، والمروج الخضراء، فما هي إلا لفتة الجيد أن يطلع من ناحية الشرق قرص الشمس كأنه مجن من ذهب أو قطعة من لهب، فلا يبعد عن خط الأفق ميلاً أو ميلين حتى ينثر فوق سطح النهر حليه المتكسر، أو درّه المتحدر، فإذا تجلى هذا المنظر أمام عيني يتخلله سكون الطبيعة وهدؤوها، ملك عليّ شعوري ووجداني، فاستغرقت فيه استغراق النائم في الأحلام اللذيذة، حتى أحب أن أعود إلى نفسي إلى يوم النشور، ولا أزال هكذا هائماً في أحلامي حتى أشعر بجذبة قوية في يدي، فأنتبه فإذا السمك في الشبكة يضطرب، وما اضطرابه إلا أنه فارق الفضاء الذي يهيم فيه مطلق السراح، وبات في المحبس الذي لا يجد فيه مراحاً ولا مضطرباً، فلا أجد له شبيهاً في حالتيه إلا الفقراء والأغنياء. يمشي الفقير كما يشتهي ويتنقل حيث يريد كأنما هو الطائر الذي لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنقير، ولولا أن تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما طار في كل فضاء؛ ولا تنقل حيث يشاء، أما الغني فلا يتحرك ولا يسكن إلا وعليه من الأحداق نطاق، ومن الأرصاد أغلال وأطواق، ولا يخرج من منزله إلا إذا وقف أمام المرآة ساعة يؤلف فيها من حقيقته وخياله ناظراً ومنظوراً، ثم يطيل التفكير: هل يقع المنظور من الناظر موقعاً حسناً؟ حتى إذا استوثق لنفسه بذلك خرج إلى الناس يمشي بينهم مشية يحرص فيها على الصورة التي استقر رأيه عليها، فلا يطلق لجسمه الحرية في الحركة والالتفات، حتى لا يخرج بذلك عن حكمها؛ ولا لفكره الحرية في النظر والاعتبار بمشاهدة الكون وآياته، مخافة أن يغفل عن إشارات السلام، ومظاهر الإكرام.

فإذا أخذت من السمك كفاف يومي عدت به وبعته في الأسواق أو على أبواب المنازل، فإذا أدبر النهار عدت إلى منزلي، فيعتنقني ولدي وتبش في وجهي زوجتي، فإذا قضيت بالسعي حق عيالي وبالصلاة حق ربي نمت في فراشي

نومة هادئة مطمئنة، لا أحتاج معها إلى ديباج وحرير أو مهد وثير، فهل أستطيع أن أعد نفسي شقياً، وأنا أروح الناس بالاً، وإن كنت أقلهم مالاً؟

لا فرق بيني وبين الغني، إلا أن الناس لا ينهضون إجلالاً لي إذا رأوني ولا يمدّون أعناقهم نحوي إذا مررت بهم، وأهون به من فرق لا قيمة له عندي، ولا أثر له في نفسي، وما يعنيني من أمرهم إن قاموا أو قعدوا، أو طاروا في الهواء، أو غاصوا في أعماق الماء، ما دمت لا علاقة بيني وبينهم، وما دمت لا أنظر إليهم إلا بالعين التي ينظر بها الإنسان إلى الصور المتحركة.

لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم إلا تلك العلاقة بيني وبين ربي فأنا أعبده حق عبادته وأخلص في توحيده، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه، ولا أكتمك يا سيدي أنني لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لأحد من الناس، ولقد أخذ هذا اليقين مكانه من قلبي، حتى لو طلع عليَّ الملك المتوج في مواكبه وكواكبه، وراياته وأعلامه، لما خفق قلبي خفقة الرهبة والخشية، ولا شغل من نفسي مكاناً أكثر مما يشغله ملك التمثيل.

ولقد كان هذا اليقين أكبر سبب في عزائي، وراحة نفسي من الهموم والأحزان؛ فما نزلت بي ضائقة ولا هبت عليّ عاصفة من عواصف هذا الكون إلا انتزعني من بين مخالبها وهوّنها عليّ؛ حتى لا أكاد أشعر بوقعها؛ وكيف أتألم لمصاب أنا أعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر منه، وأنني مأجور عليه على قدر احتمالي إياه، وسكوني إليه؟

آمنت بالقضاء والقدر خيره وشره؛ وباليوم الآخر ثوابه وعقابه؛ فصغرت الدنيا في عيني، وصغر شأنها عندي حتى ما أفرح بخيرها، ولا أحزن لشرها، ولا أعول على شأن من شؤونها حتى شأن الحياة فيها؛ وأقسم ما خرجت مرة إلى ضفة النهر حاملاً شبكتي فوق عاتقي إلا وقع الشك في نفسي: هل أعود إلى منزلي حاملاً أو محمولاً؟

ما العالم إلا بحر زاخر، وما الناس إلا أسماكه المائجة فيه. وما ريب المنون إلا صياد يحمل شبكته كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتمسك ما تمسك وتترك ما تترك، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غداً، فكيف أغتبط بما لا أملك، أو أعتمد على غير معتمد، إذن أنا أضل الناس عقلاً وأضعفهم إيماناً!

قال المحدّث: فأكبرت الرجل في نفسي كل الإكبار، وأعجبت بصفاء ذهنه

وذكاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه. وقلت له: يا شيخ إن الناس جميعاً يبكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها. فاستقر رأيهم على أن الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك عنها، فكيف تعد العالم سعيداً وما هو إلا شقاء؟ قال: لا يا سيدي، إن الإنسان سعيد بفطرته، وإنما هو الذي يجلب بنفسه الشقاء إلىٰ نفسه، يشتد طمعه في المال فيتعذر عليه مطمعه، فيطول بكاؤه وعناؤه، ويعتقد أن بلوغ الآمال في هذه الحياة حق من حقوقه، فإذا أخطأ سهمه والتوى عليه غرضه، أنّ وشكا شكاة المظلوم من الظالم؛ ويبالغ في حسن ظنه بالأيام، فإذا غدرت به في محبوب لديه من مال أو ولد، فاجأه من ذلك ما لم يكن يقدر وقوعه فناله من الهم والألم ما لم يكن يناله لو خبر الدهر، وقتل الأيام علماً وتجربة وعرف أن جميع ما في يد الإنسان عارية مستردة، ووديعة موقوتة، وأن هذا الإحراز الذي يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة ووهم من أوهامها.. إن أكثر ما يصيب الناس من شقوة إنما يأتي من طريق الأخلاق الباطنة، لا من طريق الوقائع الظاهرة، فالحاسد يتألم كلما وقع نظره على محسود؛ والحقود يتألم كلما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه، والطماع يتألم كلما ناجته بالإثم سريرته؛ والظالم يتألم كلما سمع ابتهال المظلوم بالدعاء عليه، أو حاقت به عاقبة ظلمه؛ وكذلك شأن الكاذب والنمام والمغتاب، وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائل.

ومن أراد أن يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة، وإلا فهو أشقى العالمين؛ وإن أحرز ذخائر الأرض وخزائن السماء.

قال الصديق: فما وصل الصياد من حديثه إلى هذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال: أستودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتها لنفسك وأحببتها لك، وهي: أن يجعلك الله سعيداً في نفسك، كما جعلك سعيداً في مالك..

والسلام عليك ورحمة الله.

الانتحار

في كل موسم من مواسم الامتحان المدرسي نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين، ولو ربي التلميذ تربية دينية لما هان عليه أن يخسر سعادته الأخروية خسراناً مبيناً أسفاً على أن لم ينل كل حظه من السعادة الدنيوية،ولو ربي تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها لأنها لم تقدم إليه في لفافة الشهادة المدرسية، ولو أن أستاذه ملأ قلبه بنور الإيمان ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه: إن جناية المرء على نفسه أكبر إثماً عند الله وأعظم جرماً من جنايته على غيره، لما خاطر بدينه في آخر ساعة من ساعات حياته، وهي الساعة التي ينيب فيها العاصي إلى ربه، ويستغفر فيها المذنب من ذنبه. ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس الأخلاق والآداب أن العلم صفة من صفات الكمال لا سلعة من سلع التجارة يجب أن ينظر إليه طالبه من حيث ذاته؛ لا من حيث كونه وسيلة من وسائل العيش، لما جرى على القاعدة الفاسدة «والشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة» ولو أنه رباه على الاستقلال الذاتي وعلمه أن الشرف في هذه الحياة على قدر ما يبذل الإنسان من الجهد في خدمة الأمة أو المجتمع سواء أكان في قصر الملك أم في دار الوزارة، وفي حانوت التجارة، أم في معمل الصناعة، لما أكبر مناصب الحكومة هذا الإكبار، ولا أحتفل بها احتفال من لا يرى للحياة معنى بدونها، ولو أنه نفث في روعه روح الشاعة النفسية وعوّده الصبر والجلد في مواقف الشدة والبلاء، لما جزع هذا الجزع الفاضح، ولا جن هذا الجنون الذي خيل إليه أن عذاب النزع أهون من عذاب الهم.

لا يجني الطالب على نفسه؛ وإنما يجني عليه والده وأستاذه والمجتمع الذي يعيش فيه.

أما الوالد فإنه يقول له وهو ذاهب به إلى المدرسة: ستكون غداً يا بني

مديراً كهذا المدير، ووزيراً كهذا الوزير؛ وكلما أراد أن يحضه على الاجتهاد في طلب العلم ويخوفه عاقبة فشله في الامتحان صوّر له المستقبل المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنعه؛ وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفي فيقول له: إذا لم تنجح في الامتحان فموتك أفضل من حياتك، أما الأستاذ فإنه يضرب له من نفسه مثلاً على وجوب احترام المنصب وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الإنساني، إذ يراه بعينه يتجرّع مرارة الذل، ويعاني من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطرين عليه عناء شديداً؛ ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف، حرصاً على منصبه وإرعاء عليه، فكأنما يلقي عليه درساً عملياً موضوعه «أن من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته، لأن المنصب كل شيء في هذه الحياة»؛ أما المجتمع فإنه يحترم الموظف الصغير، أكثر مما يحترم العالم الكبير، ويطير إلى تهنئته بإقبال المنصب عليه وتعزيته يوم إدباره عنه؛ كأن الكوكب لا يدور إلا في دائرة المناصب نحوساً وسعوداً؛ فإذا رأى الناشيء ذلك أكبر الوظيفة أيما إكبار؛ ولج به الحرص عليها والتصق بها وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه، أو بعدها عنه؛ فإذا وفق إليها لطم بأنفه قبة السماء. وداس بنعله هام الجوزاء، وإن يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول الشاعر الأحمق:

فإما الثريا وإما الثرى

أيها الناشيء: لقد جهل أبوك، وغشك أستاذك، وخدعك هذا المجتمع الفاسد، فكن أحسن حالاً منهم، واعلم أن شرف العلم أكبر من شرف المنصب. وأن المنصب ما كان شريفاً إلا لأنه حسنة من حسنات العلم، وأثر من آثاره، فإن فاتك حظك منه فلا تحفل به، فهو أحقر من أن تشتد في أثره، أو تبذل حياتك وجداً عليه، ولا تحسد أرباب المناصب على مناصبهم؛ فإنما هم يخدعونك بزخرف من القول، وظاهر من النعمة، وبهرج من الابتسام؛ ووراء ذلك لو علمت قلب يقطر دماً، وفؤاد يضطرم لوعة وأسى.

خذ لنفسك حظها من العلم والأدب، ولا تحفل بعد ذلك بشيء فقد ربحت كل شيء.

الجمال

الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة، سواء أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات، وفي الحقائق أم في الخيالات.

ما كان الوجه الجميل جميلاً إلا للتناسب بين أجزائه، وما كان الصوت الجميل جميلاً إلا للتناسب بين نغماته، ولولا التناسب بين حبات العقد ما افتتنت به الحسناء، ولولا التناسق في أزهار الروض ما هام به الشعراء.

ليس للتناسب قاعدة مضطردة يستطيع الكاتب أن يبينها، فالتناسب في المرئيات غيره في المسموعات، وفي الرسوم غيره في الخطوط، وفي الشؤون العلمية غيره في القصائد الشعرية، على أنه لا حاجة إلى بيانه ما دامت الأذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها فترتاح إليه، وما لا يلائمها فتنفر منه.

إن كثيراً من الناس يستحسنون الأنف الصغير في الوجه الكبير والرأس الكبير في الجسم الصغير، ولا يفرقون بين البرص في الجسم الأسود، والخال في الخد الأبيض، ويطربون لنقيق الضفادع كما يطربون لخرير المياه، ويفضلون أصوات النواعير على أنغام العيدان، ويعجبون بشعر ابن الفارض وابن معتوق والبرعي أكثر مما يعجبون بشعر أبي الطيب وأبي تمام والبحتري، ويضحكون لما يبكي، ويبكون مما يضحك، ويرضون بما يغضب، ويغضبون مما يرضى!

أولئك هم أصحاب الأذواق المريضة، وأولئك هم الذين تصدر عنهم أفعالهم وأقوالهم مشوهة غير متناسبة ولا متلائمة، لأنهم لم يدركوا سر الجمال فيصدر عنهم ولم تألفه نفوسهم، فيصبح غريزة من غرائزهم.

إن رأيت شاعراً يبتدىء قصائد التهنئة بالبكاء على الأطلاق، ويودع القصائد الرثائية بالنكات الهزلية، ويتغزل بممدوحه كما يتغزل بمعشوقه؛ أو متكلماً يقتضب الأحاديث اقتضاباً. ويهزل في موضع الجد، ويجدّ في موضع الهزل؛ أو صحفياً

يضع العنوان الضخم للخبر التافه، ويكتب مقدمة في السماء لموضوع في الأرض، أو حاكماً يضع الندى في موضع السيف، والسيف في موضع الندى، أو ماشياً يتلوى في طريقه من رصيف إلى رصيف، كأنما يرسم خطاً متعرجاً، أو لابساً في الشتاء غلالة الصيف، وفي الصيف فروة الشتاء، فأعلم أن ذوقه مريض، وأنه في حاجة إلى معالجة ذوقه، كحاجة المجنون إلى علاج عقله، والمريض إلى علاج جسمه.

كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه، ولا كل مريض يرجى إبلاله، كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه، فإن رأيت من تؤمل في إصلاحه خيراً، وتجد في نفسه استعداداً لتقويم ذوقه، فعلاجه أن تحفه بأنواع الجمال، وتدأب على تنبيهه إلى متناسباته ومؤتلفاته، وإن استطعت أن تعلمه فناً من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل، فإنها المقومات للأذواق، والغارسات في النفوس ملكات الجمال.

الكذب

كذب اللسان من فضول كذب القلب، فلا تأمن الكاذب على ود ولا تثق منه بعهد، واهرب من وجهه الهرب كله، وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك: الرجل الكاذب.

عرف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام للواقع، ولعلهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة العرفية، ولو شاءوا لأضافوا إلى كذب الأقوال كذب الأفعال.

لا فرق بين كذب الأقوال وكذب الأفعال في تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه، ولا فرق بين أن يكذب الرجل فيقول: إني ثقة أمين لا أخون ولا أغدر فأقرضني مالاً أرده إليك، ثم لا يؤديه بعد ذلك، وبين أن يأتيك بسبحة يهمهم بها فتنطق سبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء، فيخدعك في الثانية كما خدعك في الأولى، لا بل يستطيع كاذب الأفعال أن يخدعك ألف مرة قبل أن يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة لأنه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بينة كاذبة من جميع حركاته وسكناته.

ليس الكذب شيئاً يستهان به، فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل فكأنه أصل والرذائل فروع له، بل هو الرذائل نفسها. وإنما يأتي في أشكال مختلفة ويتمثل في صور متنوعة.

المنافق كاذب لأن لسانه ينطبق بغير ما في قلبه، والمتكبر كاذب لأنه يدعي لنفسه منزلة غير منزلته. والفاسق كاذب لأنه كذب في دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه، والنمام كاذب لأنه لم يتق الله في فتنته، فيتحرى الصدق في نميمته، والمتملق كاذب لأن ظاهره ينفعك؛ وباطنك يلذعك.

لقد هان على الناس أمر الكذب حتى إنك لتجد الرجل الصادق فتعرض

على الناس أمره وتطرفهم بحديثه كأنك تعرض عجائب المخلوقات وتتحدث بخوارق العادات.

فويل للصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة، وويل له من صديق يخون العهد، ورفيق يكذب الود، ومستشار غير أمين، وجاهل يفشي السر، وعالم يحرف الكلم عن مواضعه، وشيخ يدعي الولاية كذباً، وتاجر يغشّ في سلعته، ويحنث في إيمانه، وصحفي يتجر بعقول الأحرار، كما يتجر النخاس بالعبيد والإماء، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء.

غرفة الأحزان

كان لي صديق أحبه لفضله وأدبه، أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه، فكان يروقني منظره ويؤنسني محضره، ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته، أو فسقه واستهتاره، لأنني ما فكرت قط أن أتلقى عنه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق.

قضيت في صحبته عهداً طويلاً ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئاً حتى سافرت من القاهرة سفراً طويلاً فتراسلنا حيناً، ثم انقطعت عني كتبه فرابني من أمره ما رابني، ثم رجعت فجعلت أكبر همي أن أراه فطلبته في جميع المواطن التي كنت ألقاه فيها فلم أجده، فذهبت إلى منزله، فحدّثني جيرانه أنه هجره من عهد بعيد، وأنهم لا يعرفون أين مصيره، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه، فأيقنت أني قد فقدت الرجل، وأني لن أجد بعد اليوم إليه سبيلاً.

هنالك ذرفت من الوجد دموعاً لا يذرفها إلا من قلّ نصيبه من الأصدقاء، وأقفر ربعه من الأوفياء، وأصبح غرضاً من أغراض الأيام، لا تخطئه سهامها ولا تغبه آلامها[1].

بينما أنا عائد إلى منزلي في ليلة من ليالي السرار[2] إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا الظلام المدلهم إلى زقاق موحش مهجور يخيل للناظر إليه في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن الجان، أو مأوى الغيلان، فشعرت كأني أخوض بحراً أسود، يزخر بين جبلين شامخين، وكأن أمواجه تقبل بي وتدبر وترتفع وتنخفض، فما توسطت لجته حتى سمعت في منزل من تلك المنازل

(١) أغبه الألم: جاءه حيناً بعد حين.

(٢) ليالي السرار: الليالي الأخيرة من الشهر.

المهجورة أنه تتردد في جوف الليل، ثم تلتها أختها ثم أخواتها، فأثر في نفسي مسمعها تأثيراً شديداً وقلت: يا للعجب! كم يكتم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين.. وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن استطعت، أو الباكي إن عجزت، فتلمست الطريق إلى ذلك المنزل حتى بلغته، فطرقت الباب طرقاً خفيفاً فلم يفتح، فطرقته أخرى طرقاً شديداً ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها، فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها، فإذا هي في ثيابها الممزقة، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة، وقلت لها: هل عندكم مريض؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها، وقالت: أدرك أبي أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت؛ ثم مشت أمامي فتبعتها حتى وصلت إلى غرفة ذات باب قصير مسنم، فدخلتها، فخيل إليّ أني قد انتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وأن الغرفة قبر، والمريض ميت، فدنوت منه حتى صرت بجانبه، فإذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشبي. فوضعت يدي على جبينه ففتح عينيه وأطال النظر في وجهي، ثم فتح شفتيه قليلاً قليلاً؛ وقال بصوت خافت: «أحمد الله فقد وجدت صديقي» فشعرت كأن قلبي يتمشى في صدري جزعاً وهلعاً، وعلمت أني قد عثرت بضالتي التي كنت أنشدها، وكنت أتمنى ألا أعثر بها، وهي في طريق الفناء، وعلى باب القضاء، وألا يجدد لي مرآها حزناً كان في قلبي كميناً، وبين أضالعي دفيناً، فسألته ما باله؟ وما هذه الحال التي صار إليها؟ وكأن أنسه بي أمد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور، فأشار إليّ أنه يحب النهوض، فمددت يدي إليه، فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص عليّ القصة الآتية:

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتي بيتاً يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنحتها على مثلها حسناً وبهاء، ورونقاً وجمالاً، فألم بنفسي من الوجد بها ما لم أستطع معه صبراً، فما زلت بها أعالجها فتمتنع. واستنزلها فتعتذر، وأتأتى إلى قلبها بكل الوسائل فلا أصل إليه. حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه إليها، فكسن جماحها، وأسلس قيادها، فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنيناً يضرب في أحشائها، فأسقط في يدي، وطفقت أرتئي بين أن أفي لها بوعدها أو أقطع حبل ودّها، فآثرت أخراهما على

أولاهما، وهجرت ذلك المنزل الذي كنت تزورني فيه، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً.

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال، وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب، ومد يده تحت وسادته وأخرج كتاباً بالياً مصفراً، فقرأت فيه ما يأتي:

«لو كان بي أن أكتب إليك لأجدد عهداً دارساً، أو وداً قديماً، ما كتبت سطراً، ولا خططت حرفاً، لأني أعتقد أن عهداً مثل عهدك الغادر، ووداً مثل ودك الكاذب، يستحق أن أحفل به فأذكره، أو آسف عليه فأطلب تجديده.

إنك عرفت حين تركتني أن بين جنبي ناراً تضطرم، وجنيناً يضطرب، تلك للأسف على الماضي، وذاك للخوف من المستقبل، فلم تبال بذلك وفررت مني حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر إلى شقاء أنت صاحبه، ولا تكلف يدك مسح دموع أنت مرسلها، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنك رجل شريف؟ لا... بل لا أستطيع أن أتصور إنك إنسان؛ لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة في نفوس العجماوات وأوابد الوحش إلا جمعتها في نفسك، وكل ما في الأمر أنك رأيتني السبيل إلى إرضائها فمررت بي في طريقك إليها، ولولا ذلك ما طرقت لي باباً، ولا رأيت لي وجهاً.

خنتني إذ عاهدتني على الزواج فأخلفت وعدك ذهاباً بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة إلا صنعة يدك وجريرة نفسك، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة، فقد دافعتك جهدي حتى عييت بأمرك، فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير، بين يدي الجبار الكبير.

سرقت عفتي، فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب، أستثقل الحياة وأستبطىء الأجل، وأي لذة في العيش لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجة لرجل ولا أماً لولد، بل لا تستطيع أن تعيش في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية إلا وهي خافضة رأسها، مسبلة جفنها، واضعة خدها على كفها، ترتعد أوصالها وتذوب أحشاؤها، خوفاً من عبث العابثين وتهكم المتهكمين.

سلبتني راحتي لأني أصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة إلى الفرار من ذلك القصر الذي كنت متمتعة فيه بعشرة أبي وأمي، تاركة ورائي تلك النعمة الواسعة

وذلك العيش الرغد إلى منزل حقير في حي مهجرو لا يعرفه أحد، ولا يطرق بابه، لأقضي فيه الصبابة الباقية لي من أيام حياتي.

قتلت أمي وأبي، فقد علمت أنهما ماتا، وما أحسب موتهما إلا حزناً لفقدي، ويأساً من لقائي.

قتلتني لأن ذلك العيش المر الذي شربته من كأسك، والهم الطويل الذي عالجته بسببك، قد بلغا مبلغهما من جسمي ونفسي، فأصبحت في فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفساً في نفس، وأحسب أن الله قد صنع لي، واستجاب دعائي، وأراد أن ينقلني من دار الموت والشقاء، إلى دار الحياة والهناء.

فأنت كاذب خادع، ولص قاتل، ولا أحسب أن الله تاركك دون أن يأخذ لي بحقي منك.

ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدد بك عهدا، أو أخطب إليك وداً، فأنت أهون عليَّ من ذلك، إنني قد أصبحت على باب القبر وفي موقف وداع الحياة بأجمعها خيرها وشرها، سعادتها وشقائها، فلا أمل لي في ود، ولا متسع لعهد، وإنما كتبت إليك لأن لك عندي وديعة وهي فتاتك، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قبلك أبقى لك منها رحمة الأبوة، فأقبل إليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك أمها من قبلها».

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تتحدَّر على خدَّيه فسألته: وماذا تم بعد ذلك؟ قال: إني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى في جميع أعضائي، وخيل إليَّ أن صدري يحاول أن ينشق عن قلبي حزناً وجزعاً، فأسرعت إلى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن، فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لا حراك بها، ورأيت فتاتها إلى جانبها تبكي بكاءاً مراً، فصعقت لهول ما رأيت، وتمثلت لي جرائمي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية، وأساود ملتفة، هذا ينشب أظافره، وذاك يحدّث أنيابه، فما أفقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التي سميتها «غرفة الأحزان» حتى أعيش فيها عيشها؛ وأموت موتها.

وها أنذا أموت اليوم راضياً مسروراً، فقد حدثني قلبي أن الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء، وكابدت من الشقاء.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد، حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه وسقط

على فراشه فأسلم الروح وهو يقول: ابنتي يا صديقي؛ فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه، ثم كتبت إلى أصدقائه ومعارفه فحضروا تشييع جنازته؛ وما رئى مثل يومه يوم كان أكثر باكية وباكياً.

ولما حثونا التراب فوق ضريحه   جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

يعلم الله أني أكتب قصته، ولا أملك نفسي من البكاء والنشيج؛ ولا أنسى ما حييت نداءه لي وهو يودع نسمات الحياة، وقوله: «ابنتي يا صديقي».

فيا أقوياء القلوب من الرجال، رفقاً بضعفاء النفوس من الناس، إنكم لا تعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن، وعفتهن.. أي قلب تفجعون، وأي دم تسفكون!!



الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء.

ما من عامل يعمل في هذه الحياة إلا وهو يطلب في عمله الشرف الذي يتصوَّره، يقتل القاتل وفي اعتقاده أن الشرف في أن ينتقم لنفسه أو عرضه بإراقة هذه الكمية من الدم، ولا يبالي أن يسميه القانون بعد ذلك مجرماً؛ لأن البيئة التي يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية؛ وهي في نظره أعدل من القانون حكماً، وأصدق قولاً.

يفسق الفاسق وفي اعتقاده أنه قد نفض عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول البله الذي يظل الإعفاء والمستقيمين، وأنه استطاع أن يعمل عملاً لا يقدم عليه إلا كل ذي حذق وبراعة، وشجاعة وإقدام.

يسرق السارق ويزور المزور ويخون الخائن، وفي اعتقاد كل منهم أن الشرف كل الشرف في إحراز المال وإن كان السبيل إليه دنيئاً وسافلاً، وإن للذهب رنيناً تخفت بجانب صوته أصوات المعترضين والناقدين شيئاً فشيئاً ثم تنقطع حتى لا يسمع بجانبه صوت سواه.

هكذا يتصوَّر الأدنياء إنهم شرفاء، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه، وما أفسد عليهم تصورهم إلا الذين أحاطوا بهم من سجرائهم وخلطائهم وذوي جامعتهم؛ أولئك الذين يحتقرون الموتور حتى يغسل الدم بالدم فيعظمونه، وينعون على الرجل العف المستقيم بلاهته وخموله حتى يفجر ويستهتر فيطرونه ويجلونه، ويكرمون صاحب الذهب، ولو أن كل دينار من دنانيره محجم من الدم، وأولئك الذين يسمون الفقير سافلاً، وطيب القلب مغفلاً، وطاهر السرير بليداً، والحليم عاجزاً.

لا تعجب إن سمعت أن جماعة الأغنياء الجهلاء تنعكس في أدمغتهم صور

الحقائق حتى تلبس في نظرهم ثوباً غير ثوبها، وتتراءى في لون غير لونها، فإن بين الخاصة الذين نعتد بعقولهم ونمتدح أفهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة، حتى ليكاد يفخر بالأولى ويستحي من الأخرى.

لولا فساد التصوَّر ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية في حرب لا يدافع فيها عن فضيلة، ولا يؤيد بها حقاً من الحقوق الشرعية أو الاجتماعية، ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب أسماء العلماء والحكماء والأطباء خدمة الإنسانية وحملة عرشها وأصحاب الأيادي البيضاء عليها في سطر واحد من صحيفة واحدة، ولولا فساد التصوَّر ما جلس القاضي المرتشي فوق كرسي القضاء يفتل شاربه ويصعر خديه، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء إلى المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذل، ولا ذنب له عنده إلا أنه جاع وضاقت به مذاهب العيش فسرق درهماً، وهو يسرق الدنانير في جميع أنائه وأوقاته. ولولاه لما توهم اللص الكبير أنه أشرف من هذا اللص الصغير، ولو باتا عند قدريهما لوقفا معاً في موقف واحد أمام قاض عادل يحكم بإدانة الأول لأنه سرق مختاراً ليرفه عيشه، وبراءة الثاني، لأنه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن الموت.

فمن شاء أن يهذب أخلاق الناس، ويقوم معوجها، فليهذب تصوراتهم وليقوّم أفهامهم، يوافه ما يريد من التهذيب والتقويم.

ليس الرأي من أن يشير المعلم على المتعلم أن يجعل هذا المجتمع الإنساني ميزاناً يزن به أعماله أو مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته، فالمجتمع الإنساني مصاب بالسقم في فهمه والاضطراب في تصويره، فلا عبرة بحكمه، ولا ثقة بوزنه وتقديره.

ليس من الرأي أن يرشد المعلم المتعلم إلى أن يطلب في حياته الشرف الاعتباري فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو في الحقيقة كذلك.

ألا تراهم يعدون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب أو يحلي بها صدره، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله، كما تبتاع المرأة من الجوهري حليتها؟

لا شرف إلا الشرف الحقيقي، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته أو ماله أو راحته في خدمة المجتمع البشري جميعه أو خدمة نوع من أنواعه.

فالعالم شريف، لأنه يجلو صدأ العقل الإنساني ويصقل مرآته؛ والمجاهد في سبيل الذود عن وطنه شريف، لأنه يحمي مواطنيه غائلة الأعداء ويقيهم عادة الفناء؛ والمحسن الذي يضع الإحسان في موضعه شريف لأنه يأخذ بأيدي الضعفاء ويحيي أنفس البائسين؛ والحاكم العادل شريف، لأنه رسول العناية الإلهية إلى المظلومين يمنعهم أن يبغي عليهم الظالمون؛ وصاحب الأخلاق الكريمة شريف لأنه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته في عشرائه وخلطائه، ويلقي عليهم بالقدوة الصالحة أفضل درس في الأخلاق والآداب؛ والصانع والزارع والتاجر أشراف متى كانوا أمناء مستقيمين، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشري ويحتملون في سبيل ذلك ما يحتملون من المؤنة والمشقة حذراً عليه من التهافت والسقوط.

فإن رأيت في نفسك أيها القارىء أنك واحد من هؤلاء، فاعلم أنك شريف وإلا فاسلك طريقهم جهدك، فإن لم تبلغ غايته فأخذ القليل خير من ترك الكثير، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكي.



الحب والزواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصها أحد الكتاب موضوعها أن كاتبها غاب عن بلده بضعة أعوام، ثم عاد إليها بعد ذلك فزار صديقاً له من أثرياء الرجال ووجوههم ومن ذوي الأخلاق الكريمة والأنفس العالية، فوجده حزيناً كئيباً على غير ما يعهد من حاله قبل اليوم فاستفهم منه عن دخيلة أمره، فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يحبها ويجلها ويفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه ولم ترع عهده، وإنها فرت منه إلى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب، فاجتهد الكاتب أن يلقي تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها، فلقيها في منزل عشيقها فاعتذرت إليه عن فعلتها بأنها لا تحب زوجها لأنه في الأربعين من عمره وهي لم تبلغ العشرين، وقالت: إنها جرت في ذلك على حكم الشرائع الطبيعية وإن خالفت الشرائع الدينية؛ لأن الأولى عادلة، والثانية ظالمة، وقالت: إن ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة، ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع إلا أن تأذن المرأة لزوجها الذي تكرهه بالإلمام بها إلمام الأزواج بنسائهم ما دامت لا تحبه ولا تألف عشرته، وقالت: لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية، وأنها ربما تعدّ المرأة في بيت زوجها زانية، وفي بيت عشيقها طاهرة، إذا كانت تكره الأول.

هذا ملخص القصة على طولها، وأحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأي من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب، لأن الكاتب قد أعذر[1] تلك الفتاة فيما فعلت، واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها[2] وقضى لها فيما كان بينها.

---

(١) أعذرها: قبل عذرها.

(٢) أعداها عليه: أنصف لها منه.

وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية، فالحق أقول: إن الكاتب أخطأ في وضعها وما كنت أحسب إلا أن مذهب الإباحية[١] قد قضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمة، حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين أبناء الأمة العربية، فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به.

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها إليها دافع خداع أو سائق حاجة ثم ثاب إليها رشدها وهداها، فقلنا: لا بأس بتهوينهم ذنباً جسمته العادة، وألبسته ثوباً أوسع من ثوبه، ولا بأس برحمتهم فتاة مذنبة تحاول الرجوع إلى ربها، والتوبة من ذنبها، ويأتبى المجتمع البشري إلا أن يسد عليها أبواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين.

أما وقد وصل الحد إلى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمه عليها وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج على طاعته كلما دعاها إلى ذلك داع من الهوى، فهذا ما لا يطاق احتماله ولا يستطاع قبوله؛ إن فتاة الرواية لم تهف في جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد، وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقية في جسدها، ولم يسقها إلى ذلك سائق شهوة بشرية إن صح أن تكون الشهوة البشرية عذراً يدفع مثلها إلى مثل ما صنعت؛ لأنها فرَّت من فراش زوجها، لا من وحشية خلوتها ولا سائق جوع؛ لأنها كانت أهنأ النساء عيشاً، وأروحهن بالاً، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب في إعطاف العيش البارد لم تر مثلها من قبل ولا من بعد، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة.

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً في وضع كلمة الفساد في معاجمهم، لأنها لا مسمى لها في هذا العالم، عالم العفة والطهارة والخير والصلاح، ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاة المواخير لأنها لم تترك وراءها زوجاً معذباً منكوباً، ولم ترض عن حياتها الجديدة التي انتقلت إليها قط ولا اغتبطت بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة.

كل الأزواج ذلك الزوج إلا قليلاً، فإذا جاز لكل زوجة أن تفر من زوجها

(١) مذهب قديم كان يستحل أصحابه كل شيء رأياً واعتقاداً.

إلى عشقيها كلما وقع في نفسها الضجر من معاشرة الأول وبرقت لها بارقة الأنس من بين ثنايا الثاني، فويل لجميع الرجال من جميع النساء، وعلى النظام البيتي والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام.

أيها الكاتب! ليس في استطاعتي ولا في استطاعتك ولا في استطاعة أحد من الناس أن يقف دورة الفلك ويصدّ كر الغداة ومر العشى حتى لا يبلغ الأربعين من عمره مخافة أن تراه زوجته غير أهل لعشرتها إذا علمت أن في الناس من هو أصغر منه سناً وأكثر منه رونقاً وأنضر شباباً.

إن الضجر والسآمة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الإنساني فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه، وعلم أن نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بني على رجل وامرأة تدوم عشرتهما، ويطول ائتلافهما، فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب، وأمر الزوجين أن يعتبرا هذا الرباط رباطاً مقدساً حتى يحول بينهما وبين رجوعهما إلى طبيعتهما، وذهابهما في أمر الزوجية مذهبهما في المطاعم والمشارب، من حيث الميل لك جديد، والشغف بكل غريب.

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلاً من الزواج، فقد خالف إرادة الله وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية.

أي امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدثها نفسها في استبداله بأجمل منه؟ وأي رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى أن يكون في منزله أجمل منها، لولا هذا الرباط المقدس: رباط الزوجية، فهو الذي يعالج أمثال هذه الأماني وتلك الهواجس وهو الذي يعيد إلى النفوس الثائرة سكونها وقرارها.

لا بأس أن يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعه، ولكن لا على معنى أن يكون الحب الشهوي هو قاعدة الزواج، يحيا بحياته ويموت بموته. فالقلوب متقلبة، والأهواء نزاعة، بل بمعنى أن يكون كل منهما لصاحبه صديقاً أكثر منه عشيقاً، فالصداقة ينمو بالمودة غرسها، ويمتد ظلها، أما الحب فظل ينتقل؛ وحال تتحول.



الإسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الذين يعجبون كثيراً مما كتبه اللورد كرومر عن الإسلام، كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير دين الإسلام يضن به ضنه بنفسه وماله أن يؤمن بالوحدانية، ويصدق الرسالة المحمدية، ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويحج البيت ما استطاع إليه سبيلاً!

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسك بيسوعيته إن الإسلام دين موضوع ابتدعه عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة، ولا دخل مدرسة، ولا سمع حكمة اليونان، ولا رأى مدنية الرومان، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع والعمران.

هذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل، فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من أن يناقشه ويناظره ويخاطئه فيما وضعه الناس من الشرائع والأحكام؟ وكيف يسمح لنفسه أن ينظر إليه بالعين التي ينظر بها المسلم إليه من حيث كونه نبياً مرسلاً موحى إليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ أما ما نقرؤه أحياناً لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الإسلام وإطراء أحكامه وآياته، فهو مكتوب بأقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الأمانة والصدق، فلم يعبث التعصب الديني بكتاباتهم، ولا تمشت الروح المسيحية في أقلامهم ولا ريب في أن اللورد كرومر ليس واحداً منهم، فإن من قرأ كتابه «مصر الحديثة» خيل إليه أنه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره.

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يدهش أو يذهب به العجب كل مذهب إذا رأى في كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم في كتب المبشرين الإنجيليين، وجرائدهم ومجلاتهم، من الطعن على الإسلام وعقائده وشرائعه؟

بلغ التعصب الديني بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود اللحن في القرآن

بعد اعترافهم بأنه كتاب عربي نظمه على حسب معتقدهم رجل هو في نظرهم أفصح العرب، وليست مسألة الإعراب واللحن مسألة عقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال، وإنما الإعراب ما نطق به العرب، واللحن ما لم ينطقوا به؛ فلو أنهم اصطلحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلاً لكان رفع الأول ونصب الثاني لحناً، ولكن جهلة المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه المسلمات، واستدلوا على وجود اللحن في القرآن لقواعد النحو التي ما دوّنها مدونوها إلا بعد أن نظروا في كلام العرب وتتبعوا تراكيبه وأساليبه، وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد، فالقرآن حجة على النحاة، وليست النحاة حجة على القرآن، فإذا وجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصرون في التتبع والاستقراء، على أنهم قصروا في شيء من ذلك، وما تركوا كثيراً ولا قليلاً ولا نادراً ولا شاذاً إلا دونوه في كتبهم، فلا القرآن بملحون، ولا النحاة مقصرون، ولكن المبشرين جاهلون، فإذا كان التعصب الديني أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب أن نسمع هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الإسلام في عقائده وأحكامه.

إننا لا ننازع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على الإسلام في معتقدهم ولكنا نحب منهم ألا ينازعونا في معتقدنا، وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم.

يقول اللورد كرومر: إن الدين الإسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الإسلامية، ولا يصلح للنظام الاجتماعي، ويقول: إن ما لا يصلح له الدين الإسلامي يصلح له الدين المسيحي، ويستدل على الإسلام بالمسلمين، وعلى المسيحية بالمسيحيين.

في أي عصر من عصور التاريخ، كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدنية والعمران؟ أفي العصر الذي كانت تدور فيه رحى الحرب الدموية بين الأرثوذكس والكاثوليكية تارة، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة أسود لها لباس الإنسانية، وبكت الأرض منها والسماء؟ أم في العصر الذي كانت إرادة المسيحي فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل؛ فلا يعلم إلا ما يعلمه إياه، ولا يفهم إلا ما يلقيه إليه، فما كان يترك له الحرية حتى في الحكم على نفسه بكفر أو إيمان، وبهيمية أو إنسانية، فيكاد يتخيل أن له ذنباً متحركاً وخيشوماً طويلاً، وأنه يمشي على أربع إذا قال له الكاهن: أنت كلب:

أو قال له: إنك لست بإنسان؟ أم في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي أن دخول الجمل في سم الخياط أقرب من دخول الغني في ملكوت السموات؟ أم في العصر اذي كان يحرم فيه الكاهن الأعظم على المسيحي أن ينظر في كتاب غير الكتاب المقدس. وأن يتلقى علماً في مدرسة غير مدرسة الكنيسة؟ أم في العصر الذي ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فذعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا إلى البابا عرائض الشكوى فطردها من الجو فولت الإدبار؟! أما في العصر الذي أهدى فيه الرشيد العباسي الساعة الدقاقة إلى الملك شارلمان، فلما رآها الشعب المسيحي وسمع صوتها فرّ من وجهها ظناً منه أنها تشتمل على الجن والشياطين؟! أم في العصر الذي ألفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت في وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين ألفاً بالقتل حرقاً أو صلبا؟ أم في العصر الذي أحرق فيه الشعب المسيحي فتاة حسناء بعدما كشط لحمها وحرق عظمها لأنها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة؟

هذا الذي نعرفه أيها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية، ولا نعلم أكانت تلك المسيحية التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك أم باطلة، وإنما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية، وإن لم نقف على حقيقتها كما فعلت أنت في استدلالك بالمسلمين على الإسلام وإن لم تعرف حقيقته وجوهره، على أن استدلالنا صحيح واستدلالك باطل، فإن المدنية الحديثة ما دخلت أوروبا إلا بعد أن زحزحت المسيحية منها لتحتل محلها كالماء الذي لا يدخل الكأس إلا بعد أن يطرد منه الهواء لأنه لا يتسع لهما، فإن كان قد بقي أثر من آثار المسيحية اليوم في أكواخ بعض العامة في أوروبا فما بقي إلا بعد أن عفت عنه المدنية ورضيت بالإبقاء عليه، لا باعتبار أنه دين يجب إجلاله وإعظامه، بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفسية التي تستعين الحكومات بها وبقوتها على كسر شرَّة النفوس الجاهلة، فلا علاقة بين المسيحية والتمدين الغربي من حيث يستدل به عليها، أو باعتبار أنه أثر من آثارها، ونتيجة من نتائجها، ولو كان بينه وبينها علاقة ما افترقت عنه خمسة عشر قرناً كانت فيها أوروبا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل، فما نفعتها مسيحيتها ولا أغنى عنها كهنوتها».

أما المدنية الإسلامية فإنها طلعت مع الإسلام في سماء واحدة من مطلع واحد في وقت واحد، ثم سارت إلى جانبه كتفاً لكتف ما ينكر من أمرها ولا

تنكر من أمره شيئاً، فالمتعبد في مسجده، والفقيه في درسه، والمعرب في خزانة كتبه، والرياضي في مدرسته، والكيميائي في معمله، والقاضي في محكمته، والخطيب في محفله، والفلكي أمام إسطرلابه، والكاتب بين محابره وأوراقه، إخوة متصافون وأصدقاء متحابون لا يختصمون ولا يقتتلون، ولا يكفر بعضهم بعضاً، ولا يبغي أحد منهم على أحد.

أيها الفيلسوف التاريخي: إن كان لا بد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم أثر من آثار الإسلام بالأمس، والانحطاط الإسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الأولى. وإليك البيان:

جاء الإسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج إليه في معاده ومعاشه ودنياه وآخرته، وما يفيده منفرداً، وما ينفعه مجتمعاً.

هذب عقيدته بعدما أفسدها الشرك بالله والإسفاف إلى عبادة التماثيل والأوثان، وإحناء الرؤوس بين أيدي رؤساء الأديان، وأرشده إلى الإيمان بألوهية إله واحد لا يشرك به شيئاً، ثم أرشده إلى تسريح عقله ونظره في ملكوت السموات والأرض ليقف على حقائق الكون وطبائعه، وليزداد إيماناً بوجود الإله وقدرته وكمال تدبيره، ليكون اقتناعه بذلك اقتناعاً نفسياً قلبياً، فلا يكون آلة صماء، في يد الأهواء تفعل به ما تشاء، ثم أرشده إلى مواقف تذكره بربه وتنبهه من غفلته وتطرد الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت إليها سبيلاً، وهي مواقف العبادات ثم أطلق له الحرية في القول والعمل، ولم يمنعه من الشرك بالله والإضرار بالناس، وعرفه قيمة نفسه بعدما كان يجهلها، وعلمه أن الإنسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها ووضيعها ورفيعها وضعيفها وقويها، وأن الملك والسوقة، والشريف الهاشمي، والعبد الزنجي: أمام الله والحق سواء، وأن الأمر والنهي، والتحليل والتحريم، والنفع والضر، والثواب والعقاب، والرحمة والغفران: بيد الله وحده لا ينازعه منازع، ولا يملكها عليه أحد من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ثم نظر في أخلاقه فأرشده إلى محاسنها، ونفره من مساوئها حتى علمه آداب الأكل والشرب، والنوم والمشي، والجلوس والكلام، والتحية والسلام ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبر الابن أباه ويرحم الوالد ولده، ويعطف الأخ على أخيه، ويكرم الزوج زوجته، وتطيع الزوجة زوجها، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الأقرباء وذوي الرحم، ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت ووضعت في مواضعها

المشروعة لما كان في الدنيا بائس ولا فقير وندبه إلى الصدقة ومساعدة الأقوياء للضعفاء، وعطف الأغنياء على الفقراء. ثم شرع له الشرائع للمعاملة الدنيوية. ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والإجارة والمزارعة والوقف والوصية والميراث، ليعرف كل إنسان حقه، فلا يغبن أحداً أحداً، ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يبغي بعضه على بعض بشتم أو سب أو قتل أو سرقة أو انتهاك حرمة أو مجاهرة بمعصية أو شروع في فتنة أو خروج على أمير أو سلطان، ثم نظر في شؤونه السياسية فقرر الخلافات وشروطها، والقضاء وصفاته، والإمارة وحدودها، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم في الدين البعيدين عنهم والنازحين إليهم، وذكر مواطن القتال معهم، ومواضع المسالمة لهم.

وجملة القول: إن الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا ترك الإنسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهده إلى لحده، إلا مدَّ يده إليه وأنار له مواقع أقدامه، وأرشده إلى سواء السبيل.

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء العرب فملأت الكون نوراً وإشراقاً، واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها، ومنكر لوجودها ولكنهم كانوا جميعاً سواء في الانتفاع بنورها، والاستنارة بضيائها على تفاوت في تلك الاستنارة وتنوع في ذلك الانتفاع.

طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت أشعتها البيضاء إلى أوروبا من طريق إسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا، فأبصرها عدد قليل من أذكياء الغربيين، فانتبهوا من رقدتهم واستيقظوا من سباتهم، ورأوا من جمال المذاهب الإسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم إلى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي النابه اليقظ، فقالوا: أيمكن أن يعيش الإنسان حراً على ظهر المسكونة لا يستعبده ملك ولا يسرقه كاهن؟ أيمكن أن يبيت المرء ليلة واحدة في حياته هادئاً في مضجعه مطمئناً في مرقده، لا يروعه دولاب العذاب، ولا سيف الجلاد؟ أيمكن أن تملك النفس حريتها في النظر إلى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها؟ أيمكن أن يطلع فجر المدنية على هذا المجتمع الغربي فيمحو ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت أبصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضاً؟

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول أولئك الأذكياء هي الخطوة الأولى

التي مشتها أوروبا في طريق المدنية والعمران بفضل الإسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الأفراد من مخالطة المسلمين في أوروبا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم، ثم أخذوا يعلمونها للناس سراً ويبثونها في نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً، ويلقون في سبيل نشرها عناء شديداً، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية، فكانت هي القضاء الأخير على الوحشية السالفة والهمجية القديمة.

أيها الفيلسوف التاريخي: إنك لا بدّ تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه، كما تعلم أن المدنية الإسلامية إذا وسعت غيرها فأحر بها أن تسع نفسها، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه، فما كفاك أن أنكرت فضل صاحب الفضل عليك، حتى أنكرت عليه فضله في نفسه!

لا حاجة بي أن أشرح لك المدنية الإسلامية أو أسرد لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والأخلاق والعمران، أو أُعدّد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب، أو أصف لك مدنها الزاهرة، وأمصارها الزاخرة، وسعادتها وهناءتها، وعزتها وسطوتها، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخاً كما تقول.

غير أني لا أنكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور، وما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال، ولكن ليس السبب ذلك الإسلام كما نتوهم، بل المسيحية التي سرت عدواها إليهم على أيدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الإسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء، وأمرائه الجهلاء، فأمدوهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين، حتى أفسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم، وأوقعوا الفتنة فيهم، وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الإسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان.

كل ما نراه اليوم بين المسلمين: من الخلط في عقيدة القضاء والقدر، وعقيدة التوكل، وتشييد الأضرحة وتخصيص القبور وتزيينها والترامي على أعتابها، والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها، وإسناد النفع والضرر إلى رؤساء الدين، وأمثال ذلك أثر من آثار المسيحية الأولى، وليس من الإسلام في شيء.

أيها الفيلسوف التاريخي: لا تقل إننا متعصبون تعصباً دينياً فإنك قد أسأت إلينا وإلى ديننا، فلم نر بداً من الذب عنا وعنه بما تعلم أنه حق وصواب، على أنه لا عار علينا فيما تقول، وهل التعصب الديني إلا اتحاد المسلمين يداً واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم؛ وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله.

إن كـان رفـضـاً حـب آل مـحـمـد فـلـيـشـهـد الـثـقـلان أنـي رافـض



أهناء أم عزاء

فارق مصر على أثر إعلان الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين بعدما عمروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة، وبعدما كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية.. يأخذون من كمال الأولى ليتمموا ما نقص من الأخرى، وبعد ما علموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجتهد في سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد في معركة الحياة.

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون إلينا فنسيء إليهم، ويعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء، وأخرى ثقلاء، كأنما كنا نحسب أنهم قوم من شذّاذ الآفاق أو نفايات الأمم جاءوا إلينا يصادروننا في أرزاقنا، ويتطفلون على موائدنا، ولو أنصفناهم لعرفناهم وعرفنا أن أكثرهم من بيوتات المجد والشرف، وإنما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعاً، وكذلك شأن كل حكومة مستبدّة مع أحرار النفوس وأباة الضيم، فأحرجت صدورهم، وضيقت عليهم مذاهبهم ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفاً ينعاهم، ومجداً يبكي عليهم، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً، وأساتذة كباراً، فما أحسنا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم.

وبعد: فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره، وأصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت أفئدتنا مخافة أن يلحق باقيهم بماضيهم، فلا نعلم أنشكر للدستور إن فرج عنهم كربتهم، وأمنهم على أنفسهم، وردهم إلى أوطانهم أم ننقم منه أنه كان سبباً في حرماننا منهم، بعد أنسنا بهم، واغتباطنا بحسن عشرتهم وجميل مودتهم، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم في عزاء؟

فيا أيها القوم المودعون، والكرام الكاتبون:

اذكرونا مثل ذكرانا لكم	رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى بكم	شرب الدمع وعاف القدحا



الزوجتان

حدّثني أحد الأصدقاء قال: سأقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين.

أويت إلى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب، غدافية الإهاب فما استقبلت أول طليعة من طلائع النوم حتى قرع باب غرفتي فتسمعت فإذا الخادم تقول: إن امرأة سيئة الحال رثة الثياب في زي المتسولات تلح في طلب مقابلتك وتقول: إن لها عندك شأناً، فقلت في نفسي: لا شأن لي مع امرأة ربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها إليّ أكثر من حاجتي إلى النوم، على أن النوم لا يفوتني، فليل الشتاء أطول من يوم القضاء، فارتديت ردائي ونزلت، فإذا فتاة في ملاءة بالية وخمار خلق ينم بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس، وإذ هي ترعد وتضطرب وتقول بصوت شجي: أما في الناس أخو همة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفىء هذه الجذوة التي تتأجج بين أضالعي بقطرة واحدة من الرحمة؟ فقلت: من أنت يرحمك الله؟ قالت: أنا فلان زوج فلان، فدهشت وغصصت بريقي حتى ما أجد بلة أحرك بها لساني لهول ما سمعت وسوء ما رأيت، وقلت: يا للعجب! زوج فلان على عظمه وعظمها، وجلاله وجلالها، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه البزة! وسألتها: ما شأنك يا سيدتي ومم تبكين؟ قالت: لا تحدث نفسك بريبة ولا تذهب بك الظنون مذاهبها، فوالله ما جئت إليك تحت ستر الليل إلا وأنت أوثق الناس عندي، وأرفعهم في عيني، ولولا شدة أقلقت مضجعي وفرقت ما بين جفني والكرى ما خضت إليك سواد الليل في مثل هذه الساعة ولا احتملت في سبيل ذلك ما احتملت، قلت: عهدي بسيدتي رخية البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزوج عذب الأخلاق كريم السجايا يؤثر هوى نفسه على هواك، ولا يعدل بك أحداً، قالت: إنك تقص عليّ حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر، والكوكب السيار، فاستمع مني حديث اليوم:

أظنك تذكر تاريخ زواجي منه وأنه كان منذ ثلاثة أعوام، وإن أبي قد آثره وفضله على جميع الخاطبين إليه من علية القوم وجلتهم، وأنا لا ألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بي شراً ولا أعتمد أن يسيء الاختيار لي، ولكنه كان رجلاً طيب السريرة طاهر القلب، فخدعه الخادعون عني، ومن ذا الذي لا يخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرتب العالية، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتطبت به واغتبط بي برهة من الزمان حسبتها دائمة لا انقطاع لها حتى يفرق بيننا الموت، وكنت امرأة أجمع في نفسي جميع ما يمت به النساء إلى الرجال، فما خنته ولا ضقت ذرعاً به، ولا قطبت في وجهه مرة ولا أتلفت له مالاً، ولا نقضت له عهداً، فجازاني بالإحسان سوءاً، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان، وخان ودي، ونقض عهدي، لا لذنب جنيته، أو وصمة يصمني بها، ولكنه رجل ملول متبرم، ولا تغضب يا سيدي إن قلت لك: أن قلب الرجل متقلب متلون يسرع إلى البغض كما يسرع إلى الحب، وأن هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف قلبها أوثق منه عقداً، وأمتن وداً، وأوفى عهداً، ولو وفى الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرق بين قلبيهما إلا ريب المنون. قلت: أنا لا أغضب لشيء إلا للإنسانية أن يخفر ذمامها، وينقض عهدها، ثم ماذا تم بعد ذلك؟ قالت: مات أبي كما تعلم وخلف لي مالاً أمكنت منه زوجي فأتلفه بين الخمر والقمر، فكنت أغضى على ذلك رحمة به وشفقة عليه استبقاء لوده، حتى إذا صفرت يدي واقفر ريعي أحسست منه مللاً كان يدعوه إلى سوء عشرتي وتعذيب جسمي ونفسي، وكان كثيراً ما يتهكم بي ويقول: إنني لا أحب المرأة الجاهلة التي لا تفهمني ولا أفهمها، وآونة كان يعرض بي قائلاً: إن الرجل السعيد هو الذي يرزق زوجة متعلمة، تقرأ له الجرائد والمجلات وتتبسط معه في الشؤون الاجتماعية والسياسية، بل يتجاوز التعريض أحياناً إلى التصريح، فيقول كلما دخل عليّ متأففاً متذمراً: ليت لي زوجة كفلان فإنها تحسن الرقص والغناء والتوقع على الآلات الموسيقية، فكنت أشك في سلامة عقله، وأقول في نفسي: كيف يفضل الزوجة المتبذلة المستهترة على الحيية المحتشمة، ووالله ما تمنيت مرة أن أكون على الصفة التي يحبها ويرضاها مع ما كنت أبذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس. وبعد؛ فما زال الملل يدب في نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء حتى تحوّل إلى بغضاء شديدة، فما كان يلحظني إلا شزراً ولا يدخل المنزل إلا لتناول غرض أو قضاء حاجة، ثم يخرج لشأنه

فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور، وجنان وقور، حتى عرض له بعد ذلك أن نقل إلى منصب أرقى من منصبه في بعض بلاد الأقاليم، فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنس لي غير طفلتي، فلبثت أترقب كتاباً منه يدعوني فيه إلى اللحاق به؛ فما أرسل كتاباً ولا رسولاً ولا نفقة، فاستكتبت إليه الكتاب فما أسلس قياده، ولا طاوع عناده، فسافرت إليه مخاطرة بنفسي غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه معي، فما نزلت من القطار حتى قيض الله لي من وقفني على حقيقة أمره، وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية، وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية، فداخلني من الهم ما الله به عليم، وجزعت ولكن أي ساعة مجزع، ولا أظن إلا أن العدل الإلهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتها في هذا السبيل حساباً غير يسير.

وكأنه شعر بمكاني، فجاء إليَّ يتهددني ويتوعدني فتوسلّت إليه ببكاء طفلته التي كنت أحملها على يدي، وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدنا عليها، وذهبت في استعطافه واستدنائه كل مذهب، فكنت كأنني أخاطب ركوداً صماء[1] أو أستنزل أبوداً عصماء[2] ثم طردني وأمر من حملني إلى المحطة، فعدت من حيث أتيت.

فما وصلت إلى المنزل حتى خلعت ملابسي ولبست هذه الثياب وجئتك متنكرة في ذمام الليل، لأني وحيدة في هذا العالم لا قريب لي ولا حميم، ولأني أعلم كرمك وهمتك وما بينك وبين ذلك الرجل من الود والاتصال عسى أن ترىٰ لي رأياً في التفريق بيني وبينه، لعني أجد في فضاء الحرية منفذاً كسم الخياط أرتشف منه ما أتبلغ به وأنا وطفلتي حتى يبلغ الكتاب أجله.

فأحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزنني، ووعدتها بالنظر في أمرها بعد أن هونت عليها بعض أحزانها ولواعجها، فعادت إلى منزلها وعدت إلى مضجعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة، وقد اكتنفني همان: هم تلك البائسة التي لم أر في تاريخ شقاء النساء قلباً أشقى من قلبها ولا نجماً أنحس من نجمها، وهم ذلك الصديق الذي ربحته سنين عدة وخسرته في ساعة واحدة، فقد كنت

---

(١) الركود ـ من الركود ـ وهو الثبات والسكون. والصخرة الصماء: الصلبة المصمتة.

(٢) أبدت البهيمة: توحشت. والعصماء من الظباء: التي في ذراعيها بياض وسائرها أسود.

أغبط نفسي عليها فأصبحت أعزيها عنه، وكنت أحسبه إنساناً فإذا هو ذئب عملس[1] تستره الصورة البشرية وتواريه البشاشة والابتسامة.

هذا ما قصه عليّ ذلك الصديق الكريم، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة، ولا ما تم من أمرها مع زوجها حتى جاءني منه أمس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة، وهذا نصه:

سيدي:

يهمني كثيراً أن أرى بين كتب التهنئة التي ترد إليّ كتاباً منك لأسر بمشاركتك إياي في سروري وهنائي.

إنك لا بد تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها «فلان» وغدر بها وهجرها إلى أخرى غيرها بعدما جردها مما كانت تملك يدها وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها إليّ، وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك، فأعلم أنها دفعت زوجها إلى موقف القضاء فضاق بأمرها ذرعاً فطلقها، وكنت أفكر في ذلك التاريخ كما تعلم في الزواج من زوج صالحة أجد السعادة في العيش بجانبها، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفساً ولا أكرم عنصراً ولا أذكى قلباً منها، فتزوجتها فأمتعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانة المعذبة من شقوتها وبلائها، وأبشرك أن الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقاماً شديداً، فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر، والشقاء الأكبر، وأنها امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفسها مأخذاً عظيماً فحولتها إلى فتاة غربية في جميع شؤونها وأطوارها، والرجل المصري شرقي بفطرته كائناً من كان، أما غربيته فهي متكلفة معتملة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه، فهو يقاسي من تلك المرأة الخرقاء، أضعاف ما كانت تقاسيه منه أشرف النساء، والسلام؟

---

(١) العملس: السريع.

في سبيل الإحسان

الإحسان شيء جميل، وأجمل منه أن يحل محله، ويصيب موضعه.

الإحسان في مصر كثير، ووصوله إلى مستحقه وصاحب الحاجة إليه قليل؛ فلو أضاف المحسن إلى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع في ظلمة الليل شكاة بائس، وأنة محزون.

ليس الإحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس؛ فالعطاء قد يكون نفاقاً ورياء، وقد يكون احبولة ينصبها المعطي لاصطياد النفوس الاعناق، وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليذل قليلاً ويربح كثيراً.

إنما الإحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم لمناظر البؤس ومصارع الشقاء: فلو أن جميع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحساناً ـ صادر عن تلك العاطفة الشريفة ـ لما تجاوز محله، ولا فارق موضعه.

فوضى الإحسان:

الإحسان في مصر فوضى لا نظام له، يناله من لا يستحقه، ويحرم منه مستحقه، فلا بؤساً يرفع، ولا فقراً يدفع، فمثله كمثل السحاب الذي يقول فيه أبو العلاء:

ولو أن السحاب همي بعقل　　لما أروي مع النخل القتادا[1]

الإحسان في مصر أن يدخل صاحب المال ضريحاً من أضرحة المقبورين فيضع في صندوق النذور قبضة من الفضة أو الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشاً وأنعم بالاً، أو يهدى ما يسميه نذراً من نعم وشاء إلى دفين في قبره قد

(١) القتاد: شجر صلب له شوك لا فائدة منه.

شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذي يأكل لحمه والسوس الذي ينخر عظمه، وما أهدى شاته ولا بقرته ـ لو يعلم ـ إلا إلى «وزارة الأوقاف» وكان خيراً له أن يهديها إلى جاره الفقير الذي يبيت ليله طاوياً يتهشى ظلفاً[1] يمسك رمقه، أو عرقوباً يطفىء لوعته.

وأعظم ما يتقرّب به محسن إلى الله، ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتيهما: أن ينفق بضعة آلاف من الدنانير في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد، حافل بالمعابد، وفي البلد كثير من البائسين وذوي الحاجات، ينشدون مواطن الصلاة، لا أماكن الصلوات، أو يبني بنية ضخمة مرفوعة القباب، فسيحة الرحاب، مموهة الجوانب والأركان، مذهبة السقوف والجدران يسميها «سبيلاً» ولا يهولنك هذا الاسم الضخم، فكل ما في الأمر أن السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر إلا بضع خطوات، على أن الماء كالهواء ملء الأرض والسماء، ويقف الضياع الواسعة من الأرض لتنفق غلتها على أقوام من ذوي البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات، وترديد الصلوات، وقراءة الأحزاب والأوراد، وهو يحسب أنه أحسن إليهم، ولو عرف موضع الإحسان لأحسن إليهم بقطع ذلك الإحسان عنهم علهم يتعلمون صناعة أو مهنة يرتزقون منها رزقاً شريفاً، فإن كان يظن أنه يعمل في ذلك عملاً يقربه إلى الله تعالى أجل من أن يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سلماً إلى طعام يطعمونه، أو درهم يتناولونه، أو يفتح أبواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق، ولو أنصفوهم لسموهم قطاع الطرق، ولا فرق بين الفريقين: إلا أن هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصى، وأولئك يتسلحون بالسبح والمساويك، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع، فلا يتركون صادحاً ولا باغماً ولا خفاً ولا حافراً، ولا شيئاً مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها.. إلا أتوا عليه.

أسوأ الإحسان:

لم أر مالاً أضيع ولا عملاً أخيب ولا إحساناً أسوأ من الإحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الأرض ويقلبونها ظهراً لبطن، ويجتمعون في مفارق

---

(١) ظلف البقرة: ظفرها.

الطرق، وزوايا الدروب، وعلى أبواب الأضرحة والمزارات يصمون الأسماع بأصواتهم المزعجة، ويقذون النواظر بمناظرهم المستبشعة، ويزاحمون بمناكبهم الفارس والراجل، والجالس والقائم، فلو أن نجماً هوى إلى الأرض لهووا على أثره، أو طائراً طار إلى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه[1].

وإن شئت أن تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق عطفك وحنانك، وهل ما تسديه إليه من المعروف تسديه إلى صاحب حاجة، فأعلم أنه في الأعم الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما، ولا مسكن له يحتاج إلى مؤن ومرافق، ولا شهوة له في مطعم أو مشرب أو ملبس. حتى لو علم أن الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقذر من الشراب، لا يقعده عن السعي في سبيله لانقطع عنه، وهو لو شاء أن يتزوج أو يتخذ له مأوى يأوي إليه لفعل، ولو جد في حرفته متسعاً لذلك؛ ولكنه الحرص قد أفسد قلبه وأمات نفسه، فهو يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد، ليجمع مالاً لا فائدة من جمعه، ولا نية له في إصلاح شأنه به إذا اجتمع عنده ما يقوم له بذلك، بل ليدفنه في باطن الأرض حتى يدفن معه، أو لينظمه في سلك مرقعته حتى يرثه الغاسل من بعده، ولقد يبلغ به الحرص الدنيء والشره السافل، أن يحمل في المال ما لا يستطيع مجاهد أن يحمل في سبيل الله، فيتعمد قطع يده أو ساقه أو إتلاف عينيه أو إحداهما، ليستعطف القلوب عليه، وكثيراً ما يحسد صاحبه إذا رآه أكثر منه دمامة، وأعظم تشويهاً.

كما يحكى أن شحاذاً مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كفيف البصر، فتنافسا في مصيبتيهما أيتهما أقذى للأعين، وأقتل للنفوس، وأجلب للرحمة والشفقة، فقال الأول للثاني: لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك أفضل حيالة لاصطياد القلوب واستفراغ الجيوب. فقال له صاحبه: وأين يبلغ العمى من هذه القدم الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهباً؟

إن أكبر جريمة يجرمها الإنسان إلى الإنسانية أن يساعد هؤلاء المتسولين بماله على الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة فيغرى كل من شعر في نفسه بالميل إلى البطالة وإيثار الراحة بالسعي على آثارهم، والاحتراف بحرفتهم؛ فكأنه قطع

(١) القوادم: الريشات التي في مقدم الجناح، والخوافي: التي إذا ضم الطائر جناحيه خفيت.

من جسم الإنسانية عضواً كاملاً، لو لم يقطعه لكان عضواً عاملاً، فكأنه هدم بعمله هذا جميع المساعي الشريفة التي بذلها الأنبياء والحكماء قروناً عديدة لإصلاح المجتمع الإنساني، وتهذيب أخلاقه، وتخليصه من آفات الجمود والخمول؛ فهل رأيت معروفاً أقبح من هذا وإحساناً أسوأ من هذا الإحسان؟!

تنظيم الإحسان:

ليست كمية المال التي ينفقها المحسنون في سبيل الإحسان مما يستهان به، فلو قال قائل: إنها تبلغ في مصر وحدها كل عام مليوناً من الذهب لما أخطأ التقدير.

سألت رجلاً من وجوه الريفيين المعروفين بالبر والإحسان عن كمية ما ينفقه كل عام في هذا السبيل، فأطلعني على جريدة حسابه فرأيتها هكذا:

جنيه

١٠ ولائم لمشايخ الطرق.

٦٠ ليالي في موالد البيومي والعفيفي والدشطوطي.

٧٢ مرتبات قراءة القرآن والدلائل والصلوات في مسجده ومنزله.

٣٠ هبات لجماعة الطوافين في البلاد الذين يستجدون باسم المجد القديم والشرف الدائر.

١٨ صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يومياً تقريباً.

١٠ توضع في صناديق الأضرحة.

٤٠ ثمن خبز ولحم وملابس توزع في المواسم الدينية.

٢٤٠ المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها في سبيل الإحسان رجل واحد من متوسطي الثروة في عام واحد، وفي مصر مئات مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه، فلا غرابة في أن يقدر هذا النوع من الإحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شيء سوى إغراء الكسلان بكسله وحمل العامل على ترك عمله، وفي اعتقادي لو أن هذا المقدار حل من الإحسان محله، وأصاب منه موضعه، وأنفق في سبل الخير النافعة، ووجوه البر الحقيقية، لارتقى بالأمة المصرية إلى ذروة

الكمال، ولكان له الأثر الجليل في وصولها إلى ما تتطلع إليه من هناء العيش وسعادة الحياة.

لذلك أقترح في تنظيم الإحسان اقتراحاً نافعاً وأدعوا الكاتبين الذين لا مصلحة لهم في إثارة الخواطر وتهييج النفوس، وضرب الناس بعضهم ببعض، أن يساعدوني بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد.

أقترح أن يقوم جماعة من سراة الأمة ووجوهها وأصحاب الرأي فيها بتأليف مجتمع في القاهرة يسمى «مجتمع الإحسان» ويكون له في كل مدينة من مدائن الأقاليم فرع تابع له.

أما أعماله التي أحب أن يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهي ثلاثة:

أ ـ استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة بكل واسطة من وسائل النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير معنى الإحسان، وما هو الغرض منه، وما هي أفضل وجوهه، وأي أنواعه أجمع لخيري الدنيا والآخرة.

ب ـ بذل الجهد في حمل الناس على اعتبار مجتمع الإحسان هذا بيت مال لهم أو وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها على مستحقيها وحسبها أن تأخذ من كل فرد في عام مجموع ما يحسن به عادة في ذلك العام، فلا يكون بعد ذلك مأخوذاً بشيء من الإحسان أمام ربه، وأمام أمته أكثر مما قدمه لهذا المجتمع.

ج ـ إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم والقيام بأود العاجزين عن الكسب وتفقد شؤون الذين نكبهم الدهر وتنكر لهم بعد العزة والنعمة، وصيانة ماء وجوههم أن تراق على تراب الأعتاب، والإنفاق على تعليم من يتوسم فيهم الذكاء والفطنة ويرجى أن تنتفع بهم الأمة في مستقبلها من أبناء الفقراء، إلى أمثال هذه الأعمال الخيرية الشريفة التي لا يتحقق الإحسان بدونها، ولا ينصرف معناه إلا إليها.

أنا أعتقد اعتقاداً لا ريب فيه أن من يخطو الخطوة الأولى في سبيل هذا العمل الجليل، ومن يضع الحجر الأول في بناء مجتمع الإنسان، هو أفضل عامل في الوجود وأشرف إنسان.



أدب المناظرة

أنا لا أقول إلا ما أعتقد، ولا أعتقد إلاّ ما أسمع صداه من جوانب نفسي؛ فربما خالفت الناس في أشياء يعلمون منها غير ما أعلم، ومعذرتي إليهم في ذلك أن الحق أولى بالمجاملة منهم، وأن في رأسي عقلاً أجله عن أن أنزل به إلى أن يكون سيقة[1] للعقول، وريشة في مهاب الأغراض والأهواء.

فهل يجمل بعد ذلك بأحد من الناس أن يرميني بجارحة من القول أو صاعقة من الغضب لأني خالفت رأيه أو ذهبت غير مذهبه، أو أن يرى أن له من الحق في حملي على مذهبه، أكثر مما يكون لي من الحق في حمله على مذهبي.

لا بأس أن يؤيد الإنسان مذهبه بالحجة والبرهان، ولا بأس أن ينقض أدلة خصمه ويزيفها مما يعتقد أنه مبطل لها، ولا ملامة عليه في أن يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل إلى نشر الحقيقة التي يعتقدها إلا وسيلة واحدة لا أحبها له ولا أعتقد أنها تنفعه أو تغني عنه شيئاً، وهي وسيلة الشتم والسباب.

إن لإخلاص المتكلم تأثيراً عظيماً في قوة حجته وحلول كلامه المحل الأعظم في القلوب والأفهام، والشاتم يعلم عنه الناس جميعاً أنه غير مختص فيما يقول، فعبثاً يحاول أن يحمل الناس على رأيه، أو يقنعهم بصدقه، وإن كان أصدق الصادقين.

أتدري لم يسب الإنسان مناظره؟ لأنه جاهل وعاجز معاً، أما جهله فلأنه يذهب في واد غير وادي مناظره وهو يظن أنه في واديه ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة إلى البحث في شؤون المناظر وأطواره وصفاته وطبائعه، كأن كل مبحث عنده مبحث «فسيولوجي»؛ وما أعجزه فلأنه لو عرف إلى مناظره سبيلاً غير هذا

---

(١) السيقة: ما يساق سوقاً؛ ومنه «إنما ابن آدم سيقة يسوقه الله».

السبيل لسلكه، وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس إياه وحماها الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين، محقاً كان أم مبطلاً.

لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الغرض من المناظرة شيئاً غير خدمة الحقيقة وتأييدها، واحسب أن لو سلك الكتاب هذا المسلك في مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم، وما اختلفوا فيها إلا لأنهم فيما بينهم مختلفون. يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها، ولكنه يبغضه فيبغض الحق من أجله فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وإن كان هو قوياً في ذاته؛ لأن القلم لا يقوى إلا إذا استمدّ قوته من القلب، فإذا جيء بالحجج والبراهين لجأ إلى المراوغة والمهاترة، فيقول لمناظره مثلاً. إنك جاهل لا يعتد برأيك أو إنك مضطرب الرأي لاثبات لك، تقول اليوم غير ما قلت بالأمس؛ وهنالك يقول له الناس: رويداً، لا تخلط في كلامك، ولا تراوغ في مناظرتك، ولا شأن لك بعلم صاحبك أو جهله، فإنه يقول شيئاً، فإن كان صحيحاً فسلم به، أو باطلاً فبين لنا وجه بطلانه، وهبه قولاً لا تعلم قائله، ولا شأن لك باضطراب صاحبه وثباته، فربما كان بالأمس على رأي تبين له خطؤه اليوم، والمرء يخطىء مرة ويصيب، فإذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعاً فرَّ إلى عف الوسائل وأوهنها، فسب مناظره وشتمه وذهب في التمثيل به كل مذهب، فيسجل على نفسه الفرار من تلك المعرفة والخذلان في ذلك الميدان.

على أن أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه، فإن لكل شيء جهتين: جهة مدح، وجهة ذم، فإما أن تتساويا، أو تكبر إحداهما الأخرى، فإن كان الأول فلا معنى للاختلاف، وإن كان الثاني وجب على المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق، لا أن يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها الأخير.

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد النزاع بينهما وحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه في طرف مما يخالفه فيه؛ فحضر حوارهما أحد الحكماء في إحدى الليالي وهما يتناظران في المرأة، يعلو بها الملك إلى مصاف الملائكة، ويهبط بها الوزير إلى منزلة الشياطين، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته، فلما علا صوتهما واشتد لجاجهما خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة، ثم عاد وبين أثوابه لوح على أحد وجهيه صورة فتاة

حسناء، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما: أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ليعطيني كل منكما رأيه فيها، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع إلى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل وعرض عليه صورة العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذماً قبيحاً، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن أنه يذم الصورة التي رآها هو. فلما عادا إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوقهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما وحضكا ضحكاً كثيراً، ثم قال لهما: هذا ما أنتما فيه منذ الليلة، وما أحضرت إليكما هذا اللوح إلا لأضربه لكما مثلاً لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه لو أنكما تنظران إلى المسائل التي تختلفان فيها من جهتيهما، فشكرا له همته، وأثنيا على فضله وحكمته، وانتفعا بحيلته انتفاعاً كثيراً، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلاً.



الإحسان في الزواج

ورد إليَّ في البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع:

حضرة السيد الفاضل:

ضمني وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فأخذته الرأفة بها فتزوجها، وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له، وطالت مدة الجدل بيننا ساعات، ولم يستطع أحد الفريقين أن يقنع الآخر برأيه، فاتفق رأينا جميعاً على أن نكتب إليك بذلك علك تلقي على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة، والسلام.

(ف. س)

أيها السائل الكريم:

إن كان باعث الرجل على الزواج بهذه البغي شهوة يريد قضاءها من امرأة يعشقها ولا يرى سبيلاً إلى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها إلا هذا السبيل، كما هو شأن الذين يتزوجون من البغايا، فقد أخطأ خطأ جماً، لأن من كان هذا شأنه لا يعنيه إلا أمر نفسه، ولا يشغله من شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذي يرتبط بشهوته، ويتعلق بلذته، وآية ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها في إصلاحها، ولا يحاول أن ينزع من بين جنبيها ملكة الفساد الراسخة في نفسها، ولا يداخلها مداخلة المؤدب المهذب الذي يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها، بل لا يكفيها مؤونة العيش، ولا يرفهها ولا يقلبها في الرغد والنعمة إلا إذا شعر بأن في قلبه بقية من الشغف بها، فإذا أقفر قلبه من حبها وعلم أن فراقها لا يهيج له وجداً، ورجوعها إلى عيشها السالف لا يثير منه غيرة، فارقها فراقاً هادئاً مطمئناً لا يمازجه حزن على فسادها، ولا يخالطه أسف على سقوطها، وهنالك تعود تلك المسكينة إلى عشها الذي طارت منه وقد أمسكت بين جوانحها

من الحقد والموجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به.

فالرجل الذي يتزوج من البغي قضاء لشهوته وإيثاراً للذته، لا ينفعها ولا يحسن إليها؛ لأنه لا يهذب نفسها، ولا يفي لها بما عاهدها عليه من البقاء معها، والاستمرار على عشرتها، بل يسيء إليها بسوء تصرفه معها فيبغض إليها الصلاح ويحبب إليها الفساد، وعندي أنه في عمله هذا فاسق لا متزوج، لأنه لو لم يرَ أن الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع في الاستمتاع ما سمي مهراً ولا عقداً عقداً.

فإن كان حقاً ما تقول من أن باعثه إلى ذلك الرحمة والرأفة والحنان والشفقة فقد أحسن كل الإحسان، ولا أحسب أن بين أعماله الصالحة عملاً هو أفضل عند الله ذخراً وأعظم أجراً، من هذا العمل الصالح.

العرض أثمن من الحياة، فإن كان من يمنح الحياة فاقدها شريفاً، فأشرف منه من يرد العرض الضال إلى صاحبه المفجوع فيه.

ليت الرجال يتفقون جميعاً على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها إلى البغاء، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل أن تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن.

لِمَ لا يكون باباً من أبواب الإحسان أن يتفقد المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجوهن من أولادهم وأقربائهم، وإن لم يكنَّ من ذوات الجمال أو ذوات النسب؛ لأنه إحسان، والإحسان لا يجمل إلا إذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء.

لو عرف المحسنون معنى الإحسان لعرفوا أن إنفاق الأموال على بناء التكايا والزوايا، وتوزيعه على المتسوّلين والمتكففين، ووقفه على القارئين والذاكرين، لا يدّخر لهم من المثوبة والأجر عند الله ما يدخره لهم الإحسان إلى النساء بالعصمة من البغاء.

البغاء للبغي شقاء ما جناه عليها إلا رجل، فجدير به أن يغرم ما أتلف، ويصلح ما أفسد.

يهاجم الرجل المرأة ويعد لمهاجمتها ما شاء الله أن يعده من وعد كاذب، وقول خالب، وسحر جاذب، حتى إذا خدعها عن نفسها، وغلبها على أمرها وسلبها أثمن ما تملك يدها، نفض يده منها وفارقها فراقاً لا لقاء بينهما من بعده.

هناك تجلس في كسر بيتها جلسة الكئيب الحزين، مسبلة دمعها على خدها ملقية رأسها على كفها، تفلي أناملها التراب، لا تدري أين تذهب، ولا ماذا تصنع، ولا كيف تعيش!

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها؛ لأن الرجل يسميها ساقطة؛ وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه؛ لأن الرجل أهمل شأنها، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به على ضائقة العيش؛ وتطلبه من طريق التسول فلا تجده؛ لأن الرجل يؤثر أن يمنحها القنطار حراماً؛ على أن يمنحها الدرهم حلالاً، فلا تجد لها بداً من أن تطلبه من طريق البغاء.

فها أنت ذا ترى أن شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة، وأن الرجل هو الذي يمثل جميع أدوارها، ويظهر في كل فصل من فصولها، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل، فإنا لا نزال نعتقد أن الرجل غريم المرأة، وأن حقاً عليه أن يؤدي دينه، ويغرم أرش[1] جنايته.

إن أبى الرجل أن يتزوج المرأة بغياً فليحل بينها وبين البغاء، ولا سبيل له إلى ذلك إلا إذا اعتبر الزواج باباً من أبواب الإحسان، أي أنه يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها لنفسه، وأحق النساء بالإحسان أولئك اللواتي سلبهن الله نعمة الجمال والمال، وحلية الحسب والنسب؛ فإن أبى إلا أن يتزوج من المرأة السعيدة، فليذكر أنه هو الذي أخذ الشقية من يدها، وساقها بنفسه إلى مواطن الشقاء، ورماها بيده في هوَّة الفسق والبغاء.

---

(١) الأرش: دية الجراحات.

لا همجية في الإسلام[1]

أيها المسلمون: إن كنتم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين إلا ليموتوا ذبحاً بالسيوف وقطعاً بالرماح، وحرقاً بالنيران، فقد أسأتم بربكم ظناً، وأنكرتم عليه حكمته في أفعاله وتدبيره في شؤونه وأعماله، وأنزلتموه منزلة العابث اللاعب الذي يبني البناء ليهدمه ويزرع الزرع ليحرقه، ويخيط الثوب ليمزقه، وينظم العقد ليبدِّده.

لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الإنسان نطفة في رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه. ويمده برحمته وإحسانه، ويرسل إليه في ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه، والغذاء من مجاريه، ويذود عنه آفات الحياة وغوائلها: نطفة، فعلقة، فمضغة، فجنيناً، فبشراً سوياً.

إن إلهاً هذا شأنه مع عبده، وهذه رحمته به وإحسانه إليه، محال عليه أن يأمر بسلبه الروح التي وهبه إياها، أو يرضى بسفك دمه الذي أمده به ليجري في شرايينه وعروقه لا ليسيل بين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال.

في أي كتاب من كتب الله، وفي أي سنة من سنن أنبيائه ورسله، قرأتم جواز أن يعمد الرجل إلى الرجل الآمن في سربه، والقابع في كسر بيته، فينزع نفسه من بين جنبيه، ويفجع فيه أهله وقومه، لأنه لا يدين بدينه، ولا يذهب مذهبه في عقائده.

لو جاز لكل إنسان أن يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه، لأقفرت البلاد من ساكنيها وأصبح ظهر الأرض أعرى من سراة أديم.

إن وجود الاختلاف بين الناس في المذاهب والأديان والطبائع والغرائز سنة

---

(١) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية أطنة من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم إياهم وتمثيلهم بهم في عام ١٩٠٩.

من سنن الكون، لا يمكن تحويلها وتبديلها؛ حتى لو لم يبق على ظهر الأرض إلا رجل واحد، لجرد من نفسه رجلاً آخر يخاصمه وينازعه **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾**.

إن الحياة في هذا العالم كالحرارة لا تنتج إلا من التحاك بين جسمين مختلفين، فمحاولة توحيد المذاهب والأديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه.

أيها المسلمون: ليس ما كان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مراداً به التشفي والانتقام منهم، أو القضاء عليهم، وإنما كان لحماية الدعوة الإسلامية أن يعترضها في طريقها معترض أو يحول بينها وبين انتشارها في مشارق الأرض ومغاربها حائل، أي أن القتال كان ذوداً ودفاعاً، لا تشفياً وانتقاماً.

وآية ذلك أن السرية من الجيش ما كانت تخطو خطوة واخدة في سبيلها الذي تذهب فيه حتى يصل إليها أمر الخليفة القائم أن لا تزعج الرهبان في أديرتهم، والقساوسة في صوامعهم، وأن لا تحارب إلا من يقاومها ولا تقاتل إلا من يقف في سبيلها، ولقد كان أحرى أن تسفك دماء رؤساء الدين المسيحي وتسلب أرواحهم لو أن غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم، والقضاء عليهم.

لو أنكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم حتى أصبحت رقعة الأرض خالصة لكم، لانقسمتم على أنفسكم مذاهب وشيعاً، ولتقاتلتم على مذهبكم تقاتل أرباب الأديان على أديانهم، حتى لا يبقى على وجه الأرض مذهب ولا متمذهب.

أيها المسلمون: ما جاء الإسلام إلا ليقضي على مثل هذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الإسلام.

ما جاء الإسلام إلا ليستل من القلوب أضغانها وأحقادها، ثم يملأها بعد ذلك حكمة ورحمة، فيعيش الناس في سعادة وهناء، وما هذه القطرات من الدماء التي أراقها في هذا السبيل إلا بمثابة العمل الجراحي الذي يتذرع به الطبيب إلى شفاء المريض.

عذرتكم لو أن هؤلاء الذين تريقون دماءهم كانوا ظالمين لكم في شأن من شؤون حياتكم، أو ذاهبين في معاشرتكم والكون معكم مذاهب سوء تخافون مغبتها، وتخشون عاقبتها، وأما والقوم في ظلالكم والكون تحت أجنحتكم أضعف من أن يمدوا إليكم يد سوء، أو يبتدرونكم ببادرة شر، فلا عذر لكم.

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الأطفال الذين لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يبلغوا سن الحلم، والنساء الضعيفات اللواتي لا يحسن في الحياة أخذاً ولا رداً، والشيوخ الهالكين الزاحفين وحدهم إلى القبور قبل أن تزحفوا إليهم، وتتعجلوا قضاء الله فيهم.

أما وقد أخذتم البريء بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون، وسفاكون لا محاربون.

من أي صخرة من الصخور، أو هضبة من الهضبات، نحتم هذه القلوب التي تنطوي عليها جوانحكم، والتي لا تروعها أنات الثكالى، ولا تحركها رنات الأيامى؟

من أي نوع من أنواع الأحجار صيغت هذه العيون التي تستطيعون أن تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تأكل أطرافه وتتمشى في أحشائه على مرأى ومسمع من أمه، وأمه عاجزة عن معونته، لأن النار لم تترك لها يداً تحركها، ولا قدماً تمشي عليها؟

لا أستطيع أن أهنئكم بهذا الظفر والانتصار؛ لأني أعتقد أن قتل الضعفاء جبن ومعجزة، وأن سفك الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشية أحرى أن يعزى فيها صاحبها، لا أن يهنأ بها.

أيها المسلمون: اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم شراستكم ووحشيتكم، ولكن حذار أن تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية فالله سبحانه وتعالى أجل من أن يأمر بقتل الأبرياء، أو يرضى باستعطاف الضعفاء، فهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.



البخيل

سألني سائل: ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه؟ وأي غرض يرمي إليه من ذلك؟ فأجبته بهذا الجواب:

البخل إحدى الملكات النفسية، والملكة صفة راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار، فكما لا يسأل المسرف عن سبب إسرافه، والغاضب عن غايته من غضبه، والحاسد من غرضه من حسده، كذلك لا يسأل البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه، فكثيراً ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارض تنزع بهم إلى الرغبة عن التخلي عنها حيناً، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، لمكان تلك الملكات من نفوسهم، ونزولها منها منزلة لا تزعجها الرغبات، ولا تزعزعها الإرادات، وربما عرض للبخيل ما يدفعه إلى بذل شيء من ماله، فإذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه، أحس كأن تياراً كهربائياً قد سرى من نفسه إلى يده فتشنجت أعصابها وتصلبت أناملها وأعيت على الالتواء والانثناء، فأخرجها صفراً كما أدخلها، وبودّه أن لا يفعل لولا أن للغريزة قوة فوق قوة الإرادة، وسلطاناً تخضع له الرغبات وتنقاد إليه العقول، إلا إذا كان وراءها وازع من القانون يزعها؛ فإنه يكسر شرتها أحياناً، وإن لم ينتزعها انتزاعاً.

ويحكى أن شحيحاً تحركت في قلبه يوماً الشفقة على ابنته الجائعة العارية، فأراد نفسه على أن يبذل لها شيئاً من ماله فتأبت عليه، فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يسد خلتها من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه، علماً بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد.

فالوجه في السؤال أن يقال: ما هي الأسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخيل؟ فيكون الجواب عن ذلك: أن الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص وأطوارهم وأخلاقهم وتربيتهم، ونحن نذكر أهم تلك الأسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع.

الأول ـ الوراثة: وهي وإن كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة أحياناً من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين بأضدادها والتأثر بمخالطتهم، إلا أنها كثيراً ما تنمو وتتجسم إذا أغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف في طريق نمائها.

الثاني ـ التربية: إذا نشأ الطفل بين أهل أشحاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه، أخذ أخذهم في الحرص، وتخلق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في استحسان أو استهجان، كأنما هي عدوى الأمراض التي تسري إلى الإنسان من حيث لا يدري بها ولا يشعر بسريانها.. ويحكى أن رجلاً دخل منزلاً يعرف أهله بالشح والحرص، فرأى طفلاً صغيراً في يده ليمونة، فطلب إليه أن يعطيه إياها، فأجابه الطفل «أن يدك لا تسعها»!

الثالث ـ سوء الظن بالله: ذلك أن المتدين إذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمان بأن لله سبحانه وتعالى عيناً ساهرة على عباده الضعفاء، فهو أرحم من أن يغفل شأنهم ويكلهم إلى أنفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام، فلا يلج به الحرص على الجمع، ولا يزعجه الخوف من البذل، وعلى العكس منه ضعيف الإيمان، ضعيف الثقة بواهب الأرزاق ومقسم الحظوظ والحدود، فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه.

الرابع ـ النكبات: كثيراً ما تحل بالإنسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته من مستقرها؛ ومن ذلك النكبات التي يكون مرجعها قلة المال، كأن يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما وقع في مثلها، فكلما تمثلت له نكبة لج به الحرص وأغرق في المنع، حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً ثابتاً له؛ ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حقبة من الزمان وكابد منه ما كابد من الآلام والأوجاع، فإنه مهما حسنت حاله وانتعشت نفسه وفاضت خزائنه بالفضة وبالذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة، ولا تضيع من ذاكرته آلامها. فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يخيل إليه ما لا يتخيل، ويريه ما لا يرى، كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في أبشع صورة وأفظع شكل فهاله منظره، وذهب الخوف منه برشده، فلا يزال يراه في كل مكان وزمان، وفي حالتي الأمن والخوف، والوحشة والإنس.

الخامس ـ اللؤم: فإن النفس إذا خبثت طينتها ولؤم طبعها، كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه، وبغض الخير للناس قاطبة، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألماً على ألم، وحسرة فوق حسرة، وهو لو استطاع أن يمنع عنهم سارية السماء، ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل.

السادس ـ سقوط الهمة: إذا نشأ الإنسان عالي الهمة طموحاً إلى المعالي محباً للذكر الحسن والثناء الجميل، سهل عليه أن يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه، وحب المجد، أسال الذهب من خزائن الأغنياء، وصير نفوس الشجعان نهباً مقسماً بين شفرات السيوف، وأسنة الرماح، طلباً لسعادة الحياة بالذكر، وسعادة الممات بالخلود. فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه إلى بذل المال على مكانته الراسخة في قلبه، وامتزاج حبه بلحمه ودمه، أيدفعه حب الثناء، وهو لا يشعر بلذته؟ أو خوف المذمة، وهو لا يأتلم منها، ولا يحس بمرارتها؟ أم سعادة الحياة وسعادة الممات؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الخطيئة من المكارم بلقمة يمضغها، وحلة يلبسها.

السابع ـ فساد المجتمع الإنساني: ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها ولا لخير يطمعون فيه، بل لأنه ذو مال وذو المال في نظرهم أحق الناس بالمحبة والإكرام والإجلال والإعظام، وإن لم يحصلوا منه على طائل، فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لأصبحوا من عباده المقربين، فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينه إلا الحرص على ما في يده، وهو عمل يتكلفه ولا يتعمل له، بل هو أشهى الأشياء إليه، وأكثرها ملاءمة لفطرته؛ ليزداد شرفاً وعزاً، كلما ازداد ثراء ووفراً، ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده: يا بني لأن يعلم الناس أن عند أحدكم مائلة ألف درهم أعظم له في أعينهما من أن يقسمها فيهم، وقال رجل لآخر: يا بخيل؛ فقال له: لا أحرمني الله بركة هذا الاسم؛ فإني لا أكون بخيلاً إلا إذا كنت غنياً فسم لي المال ولقبني بما تشاء.

هذه هي أهم الأسباب التي تألفت منها رذيلة البخل؛ فإن أغفلنا النظر إليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيده البخيل من بخله، حتى على نفسه وفرضنا البخيل مختاراً فيما يفعل غير مساق إلى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة

الفاسدة، كان منال النجم أقرب من تطبق حاله هذه على قاعدة من قواعد العقل؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه رغبات الشهوات مختلفة، بعضها نفسي، والآخر جسدي؛ فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها، فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشملة والمضغة، والجرعة والظلة، ويحمل في كل لحظة أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه ونزعاتها إلى ميولها ورغباتها، لا يمكن أن يحمل حاله على محمل العجز، لأنه قادر؛ ولا على الزهد، لأنه ما زهد فيما لا ينفع فيزهد فيما ينفع؛ ولا على الخوف من الفقر، لأن عنده من المال ما يفني الأعمار، فهيهات أن يفنيه عمر واحد، ولا على رغبة في سعادة الذرية، لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاً له في سعادته؛ فأما أن يشقى في حياته، ليسعد ولده بعد مماته، فما لا يقبله العقل، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم، فلم يبق لنا إلا أن نتوسل إلى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون، حتى لا يكون مقصوراً على المعربدين والهاذين، بل يكون شاملاً للعابثين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون، والذين يجلبون لأنفسهم بإرادتهم وباختيارهم آلاماً نفسية هي شد مما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران ومطاردة الصبيان، كما نتوسل إلى علماء الشرائع أن يضعوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقترين كما وضعوا قانوناً لحفظ المال في صناديق المبذرين؛ فإن تبذير المال يضر قوماً وينفع أقواماً، أما حبسه فيضر صاحبه، ويضر معه الناس أجمعين.

البعوض والإنسان

جلست ليلة أمس إلى منضدتي وعلقت قلمي بين أصابعي، وأنشأت أفكر في الموضوع الذي يجمل بي أن أكتب فيه.. وتلك عادتي التي يعرفها عني كثير من خلطائي وعشرائي: أنني لا أميل إلى الكتابة في بياض النهار، ولا أحب أن أخط حرفاً على ما أحب وأرتضي إلا في ظلام الليل وهدوئه.

ولا يظن المولعون باكتناه الحقائق واستشفاف الضمائر من إخواننا الفضوليين أنني أريد بذلك مراعاة النظير بين سواد المداد وسواد الظلام، أو أنني أترقب طلوع النجم لأتسلق أشعته إلى سماء الخيال، فكل ذلك لم يكن، وليس في الناس من هو أدرى بدخيلة أمري مني، وكل ما في المسألة أن هذه عادتي وتلك طريقتي، وكفى.

لم أكد أفرغ من التفكير في الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض في أذني، ثم أحسست بلذعاته في يدي، فتفرق من ذهني ما كان مجتمعاً وتجمع من همي ما كان مفترقاً، ولم أر بداً من إلقاء القلم وإعداد العدة لمقاومة هذا الزائر الثقيل.

طاردته بالمذبة فما أجدى ذلك نفعاً لأنه على الطيران أقوى مني على المطاردة، وفتحت النوافذ لأخرج ما كان داخلاً، فدخل ما كان خارجاً، وحاولت قتله فوجدته مبعثراً؛ ولو كان مجتمعاً في دائرة واحدة لهلك بضربة واحدة، ولم أرى في حياتي أمة ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غير أمة البعوض؛ فما أضعف هذا الإنسان، وما أضل عقله في اغتراره بقوته واعتداده بنفسه، واعتقاده أن في يده زمام الكائنات يصرفها كيف يشاء ويسيرها كما يريد! وأنه لو أراد أن يذهب بنظام هذا الوجود، ويأتي له بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك إلا أن يرسل أشعة عقله دفعة واحدة، ويشحذ سيف ذكائه، ويبتعث عزيمته ويقدتح فكرته.

يزعم ذلك، وهو يعلم أنه أضعف من أن يحتال لنفسه في مدافعة أصغر الحيوان جسماً وعقلاً، وأدناها قيمة وشأناً، بيد أنه يعلم ذلك بلسانه، وفي فلتات وهمه. ولو علمه علماً يتغلغل في نفسه، ويتمثل في سوايداء قلبه لكفكف من غلوائه، وخفض من كبريائه، وعلم علم اليقين أن الإنسان العاقل، والحيوان الملهم، والنبات النامي، والجماد الجامد، سواء بين يدي القوة الإلهية الكبرى، التي لا ينفع نفعها حول ولا قوة.

علمت أني عييت بأمر هذا الحيوان، فلذت بجانب الصبر، والصبر - كما يعلم معشر الصابرين - حجة العاجز، وحيلة الضعيف وأيسر ما يستطيع أن يدفع به دافع عن نفسه ملامة اللائمين، وفضول المتطفلين، وقلت في نفسي: لو كان البعوض يفهم ما أقول لقصصت عليه قصتي، وشرحت له عذري، وسألته أن يمنحني ساعة واحدة أقوم فيها بكتابة رسالتي هذه، ثم هو بعد ذلك في حل من جسمي ودمي، ينزل منهما حيث يشاء، ويمتص منهما ما يشاء، ولكنه - ويا للأسف - لا يسمع شكاتي، ولا يرحم شراعتي ولا يفهم قيمة المروءة، لأنه ليس بإنسان.

أحسب أن لذعات البعوض قد أخذت مأخذها من عقلي وفهمي؛ وأني قد بدأت أهذي هذيان المحموم؛ فمن أين لي أن لو كان البعوض إنساناً كان يسمع شكاتي، ويكشف ظلامتي، أو أنه يفهم معنى الرحمة ويعرف قيمة المروءة، ومتى كان الإنسان أحسن حالاً من البعوض وأرحم منه قلباً وأشرف غاية، فأتمنى لو كان مكانه؟ بل، ومن أين لي أن هذا الذي أحسبه بعوضاً ليس بإنسان قد تقمص جسم البعوض وتمثل لي في صورته الضئيلة وجناحه الرقيق؟ وأي غرابة في أن أتخيل ذلك ما دام الإنسان والبعوض سواء في حب الشر والميل إلى الأذى، وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الجواهر الذاتية، والأجزاء المقومة للماهية؟

أي قيمة لما يمتصه البعوض من جسم الإنسان مجتمعاً في جانب ما يمتصه القاتل من جسم المقتول منفرداً؟

إن البعوض في امتصاصه الدم من الجسم أقل من القاتل ضرراً وأشرف غاية، وأجمل مقصداً؛ لأنه إن أذى الجسم فقد أبقى على الحياة؛ ولأنه يطلب عيشه الذي يحيا به، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف له طريقاً سواه ولا يستطيع أن يرى لنفسه غيره ولو استطاع لعافت نفسه أن يكون كالإنسان يتطوع للشر ويتعبد بالضر.

إني وجدت بين الإنسان والبعوض شبهاً قريباً في صفات كثيرة أنا ذاكر لك طرفاً منها وتارك لفطنتك الباقي.

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله، فلا يزال يشرب حتى يمتلىء فينفجر، فهو يطلب الحياة من طريق الموت، ويفتش عن النجاة في مكامن الهلاك، وهو أشبه شيء بشارب الخمر: يتناول الكأس الأولى منها، لأنه يرى فيها وجه سروره وصورة سعادته، فتطمعه الأولى في الثانية، والثانية في الثالثة، ثم لا يزال يلح بالشراب على نفسه حتى يتلفها ويؤدي بها، من حيث يظن أنه ينعشها، ويجلب إليها سرورها وهناءتها.

البعوض سيء التصرف في شؤون حياته؛ لأنه لا يسقط على الجسم إلا بعد أن يدل على نفسه بطنينه وضوضائه، فيأخذ الجالس منه حذره ويدفعه عن مطلبه، أو يفتك به قبل بلوغه إليه، فمثله في ذلك كمثل بعض الجهلة من أصحاب المطالب السياسية: يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم غير أنهم لا يكتمونها، ولا يحسنون الاحتفاظ بها في صدورهم، ولا يبتغون الوسيلة إليها إلا بين الصراخ والضجيج، ولا يمسكون بالحلقة الأولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها؛ ويشهدوا الملأ الأعلى والأدنى عليها، وهنالك يدرك عدوهم مقصدهم، فيعد له عدته ويتلمس وجه الحيلة في إفساده عليهم هادئاً ساكناً من حيث لا يشعرون.

البعوض خفيف في وطأته، ثقيل في لذعته، فهو كذلك الصاحب الذي يسرك منظره، ويسوءك مخبره! يلقاك بابتسامة هي العذب الزلال رقة وصفاء، والسحر الحلال جمالاً وبهاء، وبين جنبيه في مكان القلب صخرة لا تنفذها أشعة الحب، ولا يتسرب إليها سلسبيل الوفاء، يقول لك: إني أحبك ليغلبك على قلبك، ويملك عليك نفسك، فإن تم له ما أراد سلبك مالك إن كنت من ذوي المال، وجاهك إن كنت من ذوي الجاه؛ فإن لم تكنِ هذا أو ذاك أغراك بالسير في طريق يسقط مروءتك، ويثلم شرفك، فإن فاته ما يشفى به داء بطنته، لا يفوته ما يطفىء به نار حقده وموجدته.

لا يزال البعوض ملحاً في مهاجمتي، فلا طاقة لي بكتابة سطر واحد مما كتبت، والسلام.



الجزع

يا صاحب النظرات:

لي صديق سقط في امتحان «البكالوريا» هذه السنة فأثر فيه ذلك السقوط تأثيراً كبيراً، فهو لا ينفك باكياً متألماً حتى أصبحنا نخاف عليه الجنون، وكلما عزيناه عن مصابه يقول: كيف أستطيع معاشرة إخواني ومعارفي؟ وكيف أستطيع مقابلة والدي وأهلي؟ فهل لك أيها السيد أن تعالج نفسه بنظرة من نظراتك، التي طالما عالجت بها قلوب المحزونين؟؟

«حقوقي»

ليست المسألة مسألة صديقك وحده، بل مسألة الساقطين أجمعين، فإن المرء لا يكاد يتناول نظره منهم في هذه الأيام إلا وجوهاً قد نسج الحزن عليها غبرة سوداء، وجفوناً تحار فيها مدامعها حيرة الزئبق الرجراج، حتى ليخيل إليك أن نازلة من نوازل القضاء قد نزلت بهم فزلزلت أقدامهم، أو فاجعة من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتها فأثكلتهم ذخائر نفوسهم، وجواهر عقولهم، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهناءته سداً لا تنفذه المعاول، ولا تنال من أيده الزلازل.

خفض عليك قليلاً أيها الطالب، فالأمر أهون مما تظن، وأصغر مما تقدر، واعلم وما أحسبك إلا عالماً أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ إلى سفح متحجر فتبكي على شظية طارت من شظايا رأسك، ولم يهو بك القضاء إلى هوة عميقة لا خلاص لك منها أبد الدهر.

إنك قد سعيت إلى غرض فإن كنت هيأت له أسبابه، وأعددت له عدّته، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون في مثله، فقد أعذرت إلى الله وإلى الناس وإلى نفسك، فحري بك أن لا تحزن على مصاب لم يكن عملاً من أعمال يديك، ولا جناية من جنايات نفسك عليك، وإن كنت قصرت في تلمس

أسبابه، ومشيت في سبيله مشية الظالع المتقاعس، فما حزنك على فوات غرض كان جديراً بك أن تترقب فواته قبل وقت فواته؟ وما بكاؤك على مصاب كان خيراً لك أن تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه؟

ما لك تبكي بكاء الواثق بمواتاة الأيام، ومطاوعة الأقدار؟ وهل تستطيع أن تبرز لنا صورة العهد الذي أخذته على الدهر أن يكون لك كما تحب وتشتهي؟ وعلى الفلك أن لا يدور إلا بسعدك، ولا يجري إلا بجدّك؟ وعلى القلم أن لا يكتب في لوحة إلا ما دللته عليه، وأوحيت به إليه؟

لا تجعل لليأس سبيلاً إلى نفسك، فلعل الأمر يعوض عليك في غدك ما خسرت في أمسك، وامض لشأنك ولا تلتفت إلى ما وراءك، فإن تم لك في عامك المقبل من طلبتك ما أردت فذاك، أو لا، فما فقدت إذ فقدت إلا ورقة كان كل ما تستفيده منها أن تشتري بها قيداً لرجلك، وغلاً لعنقك، ثم ترتبط في سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلين بأنفسهم، يسومك من الذل والخسف ما لا يحتمله الإسراء في سجون الآسرين.

إن اعتدادك بهذه الورقة هذا الاعتداد كله وإكبارك إياها هذا الإكبار العظيم دليل على أنك كنت تريد أن تجعلها منتهى أملك، وغاية همتك، وإنك لا ترى بعدها مزيداً من الكمال لمستزيد، فإن صدقت فراستي فيك، فاعلم أن الله قد خار لك في هذا المصير، وساق إليك من الخير ما لا تعرف السبيل إليه، وأنه ما خيب رجاءك في هذا الكمال الموهم إلا لتطلب لنفسك كمالاً معلوماً، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة في صفحات الأوراق، إلا لتسعى وراء السعادة المكتوبة في صفحات القلوب.

إن كنت تبكي على الشرف فباب الشرف مفتوح بين يديك، لا شأن للحكومة فيه، ولا حاجب لها عليها، وما هو إلا أن تجد في التزيد من العلم والمعرفة، واستكمال ما ينقصك من الفضائل النفسية، فإذا أنت شريف في نفسك، وفي نفوس الخاصة من الناس، وإذا أنت في منزلة يحسدك عليها كثير من أرباب الشهادات والمناصب، ولا حي الله شرفاً يحيى بورقة ويموت بأخرى، ولا مجداً يأتي به سطر ويذهب به سطر، وإن كنت تبكي على العيش، ففي أي كتاب من كتب الله المنزلة قرأت أن أرزاقه وقف على الموظفين، وحبائس على المستخدمين؟ وأنه لا يأمر بصرف درهم واحد من خزانته إلا إذا جاءته سفتجة بتوقيع أمير، أو إشارة وزير؟

أيها الطالب:

قل لأبيك وأخيك وأهلك وأصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء: إن الذي وهبني عقلي لم يسلبنيه، وإن الذي صوّر لي أعضائي لم يحل بيني وبين الذهاب بها فيما خلقت له، وإن الذي خلقني سوف يهدين، إنه الرزاق ذو القوة المتين.



النبوغ

من العجز أن يزدري المرء نفسه فلا يقيم لها وزناً، وأن ينظر إلى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم إلى الحيوان الناطق، وعندي أن من يخطىء في تقدير قيمته مستعلياً، خير ممن يخطىء في تقديرها متدلياً؛ فإن الرجل إذا صغرت نفسه في عين نفسه يأبى لها من أعماله وأطواره إلا ما يشاكل منزلتها عنده؛ فتراه صغيراً في علمه صغيراً في أدبه، صغيراً في مروءته وهمته، صغيراً في ميوله وأهوائه، صغيراً في جميع شؤونه وأعماله؛ فإن عظمت نفسه عظم بجانبها كل ما كان صغيراً في جانب النفس الصغيرة.

ولقد سأل أحد الأئمة العظماء ولده، وكان نجيباً: أي غاية تطلب في حياتك يا بني وأي رجل من عظماء الرجال تحب أن تكون؟ فأجابه: أحب أن أكون مثلك، فقال: ويحك يا بني! لقد صغرت نفسك، وسقطت همتك، فلتبك على عقلك البواكي، لقد قدّرت لنفسي يا بني في مبدإ نشأتي أن أكون كعلي بن أبي طالب، فما زلت أجد وأكدح حتى بلغت المنزلة التي تراها، وبيني وبين عليّ ما تعلم، من الشأو البعيد والمدى الشاسع؛ فهل يسرك، وقد طلبت منزلتي أن يكون ما بينك وبيني من المدى مثل ما بيني وبين عليّ؟

كثيراً ما يخطىء الناس في التفريق بين التواضع وصغر النفس؛ وبين الكبر وعلو الهمة، فيحسبون المتذلل المتملق الدنيء متواضعاً، ويسمون الرجل إذا ترفع بنفسه عن الدنايا، وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبراً؛ وما التواضع إلا الأدب، ولا الكبر إلا سوء الأدب؛ فالرجل الذي يلقاك متبسماً متهللاً، ويقبل عليك بوجهه، ويصغي إليك إذا حدثته ويزورك مهنئاً ومعزياً، ليس صغير النفس كما يظنون، بل هو عظيمها؛ لأنه وجد التواضع أليق بعظمة نفسه فتواضع، والأدب أربع لشأنه فتأدب.

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبراً أن يقال به كبر.

فإذا بلغ الذل بالرجل ذو الفضل أن ينكس رأسه للكبراء، ويتهافت على أيديهم وأقدامهم لثماً وتقبيلاً، ويتبذل بمخالطة السوقة والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة، ويبصبص برأسه، وهو سائر في طريقه بصبصة الكلب بذنبه، ويجلس في مدارج الطرق، وعلى أفواه الدروب جلسة البائس المسكين، فاعلم أنه صغير النفس ساقط الهمة لا متواضع ولا متأدب.

إن علو الهمة إذا لم يخالطه كبر يزرى به ويدعو صاحبه إلى التنطع وسوء العشرة ـ كان أحسن ذريعة يتذرع بها الإنسان إلى النبوغ في هذه الحياة، وليس في الناس من هو أحوج إلى علو الهمة من طالب العلم، لأن حاجة الأمة إلى نبوغة أكثر من حاجتها إلى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين، وهل الصانعون والمحترفون إلا حسنة من حسناته، وأثر من آثاره؟ بل هو البحر الزاخر الذي تستقي منه الجداول والغدران.

فيا طالب العلم كن عالي الهمة، ولا يكن نظرك في تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعث في قلبك الرهبة والهيبة فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب، أو خرافة من خرافات الجان؛ وحذار أن يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك فتستسلم استسلام العاجز الضعيف وتقول: من لي بسلم أصعد فيها إلى السماء حتى أصل إلى قبة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال؟

يا طالب العلم، أنت لا تحتاج في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من قبلك إلى خلق غير خلقك؛ وجو غير جوك، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك؛ ولكنك في حاجة إلى نفس عالية كنفوسهم، وهمة عالية كهممهم، وأمل أوسع من رقعة الأرض، وأرحب من صدر الحليم، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسماجة، فنعم الخلق هي إن كانت السبيل إلى بلوغ الغاية، فامض على وجهك ودعهم في غيهم يعمهون.

جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم إلى سماء المجد والشرف: علو الهمة والفهم في العلم، أما علو الهمة فقد عرفته. وأما الفهم في العلم، فإليك الكلمة الآتية:

العلم علمان: علم محفوظ وعلم مفهوم، أما العلم المحفوظ فيستوي

صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم، ولا فرق بين أن تسمع من الحافظ كلمة، أو تقرأ في الكتاب صفحة؛ فإن أشكل عليك شيء مما تسمع، فانظر إن نطق الكتاب بشرح مشكلاته، نطق الحافظ بتفسير كلماته.

الحافظ يحفظ ما يسمع لأنه قوي الذاكرة، وقوة الذاكرة قدر مشترك بين الذكي والغبي والنابه والخامل؛ لأن الحافظ ملكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات: وإنك لترى الشيخ الفاني الذي لا يميز بين الطفولة والهرم، والذي يبكي على الحلوى بكاء الطفل عليها، ويرتعد فرقاً حينما يسمع ابنته تخيف طفلها بأسماء الجن والشياطين، ويسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دونته لكان تاريخاً صحيحاً ضخماً مملوءاً بالغرائب والنوادر؛ وقيل لأحد العلماء: إن فلاناً حفظ متن البخاري، فقال: لقد زادت نسخة في البلد!

ذلك هو السر العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين؛ لأن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أشربته روحه، وخالط لحمه ودمه ووصل من قلبه إلى سويدائه، وكان إحدى غرائزه، فلا يرى له بداً من العمل به رضي أم أبى.

لولا أن العلم الديني قد أصبح اليوم علماً محفوظاً لما وجدت في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية وبين التردد على أبواب الأحياء والأموات في مزاراتهم وفي مقابرهم يسألهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى **﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً﴾** من يسند النفع والضر إلى كل من سال لعابه وتمزق إهابه، ولا وجدت في الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة الأنبياء والحكماء من مدح الفضائل وذم الرذائل، ثم لا تجد فرقاً بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات والنفور من الصالحات.

لو كان العلم المحفوظ علماً ـ وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الأثر وقلة الجدوى ـ ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سنة، ولا قدّسه كاتب، أو ترنم بمدحه شاعر، فإذا سمعت ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ؛ وآية فهم المعلوم تأثر العالم به، وظهوره في حركاته وسكناته، وترقرقه في شمائله ترقرق الصهباء في وجه شاربها، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل إليك. فربما مرَّ بالمعلوم محرفاً فأخذه على علاته، وأقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض ونقضيه، والغث والسمين، والجيد والزائف، فكان ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الأدوية الشافية، بالعقاقير السامة.

وجملة الأمر أن الحافظ البحت لا رأي له في مبحث فيسأل عن مذهب، ولا أثر لمعلوماته في نفسه فيقتدي به، ولا ذوق له في الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله.

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التي إذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار إلى المجد بجناحين. وكان له سبيل مختصر إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين، والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم أبي البشر وإسرافيل صاحب الصور[1] ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من النوابغ في كل عصر من العصور واحدة منها، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع في العلم الذي مارسه مسألة، أو كشف حقيقة، أو أصلح هفوة أو اخترع طريقة، ولن يسلس له ذلك إلا إذا كان علمه مفهوماً لا محفوظاً، ولا يكون مفهوماً إلا إذا أخلص المتعلم إليه، وتعبد له وأنس به أنس العاشق بمعشوقه، ولم ينظر إليه نظر التاجر لسلعته، والمحترف لحرفته؛ فالتاجر يجمع من السلع ما يتفق سوقه، لا ما يغلو جوهره؛ والمحترف لا يهمه من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء، أحسن أم أساء.

لا يزور العلم قلباً مشغولاً بترقب المناصب، وحساب الرواتب، وسوق الآمال وراء الأموال، كما يزور قلباً مقسماً بين تصفيف الطرة، وصقل الغرّة، وحسن القوام، وجمال الهندام، وطول الهيام بالكأسين: كأس المدام، وكأس الغرام.

(١) المراد أن العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكر، فالعلم دائب فيها من ابتداء الدنيا إلى انتهائها.

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة في منزله، فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة، تشكو ألماً في عنقها، وجرحاً في ذراعها، وهماً في نفسها، وتدير في الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة كأنما هي مركبة على زئبق رجراج؛ فسألت: ما شأنها؟ فعلمت أن أهلها زوجوها وهي في هذه السن وعلى السذاجة من رجل وحشي الخلق والخلق. ثم زفوها إليه فحاول أن يفترشها، وهي على حالة لا تستطيع معها أن تلم بفراش فامتنعت عليه، فأراد اغتصابها فعجز، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها، ففرت منه إلى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذي سموه بلادة وغفلة، وأعادوها إلى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من سجنه إليه مرة أخرى؛ وهنالك عاد زوجها إلى عادته معها، فعادت هي إلى فرارها فعاد أهلها إلى قسوتهم وجبروتهم. فلما أعياها الأمر خرجت إلى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهباً ولا مستقراً، حتى رفع أمرها إلى ذلك الحام، فأمر باستدعائها وآواها في منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعي وجبهة الأسد. وما فرغ من هذه القصة حتى رفعت إليه حادثة أخرى نشبه الحادثة الأولى من جميع وجوهها، إلا أن الزوج في هذه المرة خدع زوجه عن نفسها وسقاها مخدراً فعقرها كما عقر شقي ثمود الناقة من قبل.

إن المرأة المصرية شقية بائسة، ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها.

إنها لا تحسن عملاً، ولا تعرف باب مرتزق، ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها إلا قلب الرجل، فإن استطاعت أن تمتلكه عاشت عيشاً رغداً، أو لا ، فلا مفر لها من الشقاء؛ من المهد إلى اللحد.

ودون امتلاكها هذا القلب القاسيَ المتحجر أهوال عظام، وعقبات جسام،

لو كلف الرجل نفسه على ما به من قوة وأيد وسعة حيلة أن يجتاز واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام.

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو على تقدير أولئك الجهلاء أولياء أمر تينك الفتاتين: استثقل أهلها ظلها وبرموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة، والقومة والقعدة، ورأوا أنها عالة عليهم، وأن لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً. وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب، أي خاطب كان، يحمل في جبينه آية البشرى بالخلاص منها.

وإن قوماً هذا مبلغ عقولهم من الفهم، وقلوبهم من القسوة، وهذه منزلة فلذات أكبادهم من نفوسهم، لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج، أو يحسنوا الاختيار لها حين يختارون فإذا دخلت هذا المنزل الجديد الذي لا تعرفه ولا تعرف شأناً من شؤون أهله، دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل.

فإن كانت ذات جمال أو مال، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق، وإلا فهي تقاسي كل صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب، والجمال المصنوع، آلاماً جثمانية تطفىء نور شبيبتها وتذبل زهرة حياتها، وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم، والابتسام في موضع البكاء إن بكى ما يجعل أخلاقها قضاء مملوءاً بالكذب والكيد، والخبث والرياء، وهي فوق ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام.

ليست كلمة الإعدام من قبيل الاستعمال المجازى، فما أنس لا أنس ليلة زرت فيها صديقاً لي، فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بهم من الهم غاية وكأنما هي الخلال رقة وذبولاً، ووراءها صبية ثلاث يدورون حولها ويجاذبونها طرف ردائها، فتسبل فضل مئزرها على مآقيها المقرحة رأفة بهم أن يلموا ببعض شأنها فيبكوا لبكائها، فسألتها عن شأنها فأخبرتني أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكماً من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و «الإرادة» تماطل في إنقاذه، فجاءت إلى هذا الصديق تستعين به على أمرها، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدّة ومعالجة القوت ما أسال شؤوننا؛ وصعّد زفراتنا وأمسكنا له أكبادنا خشية أن تصدّعا.

فخففت أنا والصديق شيئاً من آلامها فانصرفت؛ وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمى دماغية فسألنا فعلمنا أنها صاحبينا بالأمس، وأنها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة.

أيها الرجل:

إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك، واستعداداً مثل استعدادك، فعلمها كيف تأكل من لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدة، وإلا فأحسن إليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك.

إن كنت زوجاً فلا تطردها من منزلك بعد أن تقضي مأربك منها كما تصنع بنعلك التي تلبسها، وإن كنت أباً فهذه فلذة كبدك فلا تضق بها ذرعاً، ولا تلق بها في حجر وحش ضار يأكل لحمها ويمتص دمها، ثم يلقي إليك بعظامها.

ويا أيها المحسنون: والله لا أعرف لكم باباً في الإحسان تنفذون منه إلى عفو الله ورحمته أوسع من باب الإحسان إلى المرأة.

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة، وأدبوها لينشأ في حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم.

تم بحمد الله الجزء الأول من النظرات ويليه الجزء الثاني.

فهرست